ما وراء الطبيعة

أسطورة القادم ليلا

يقترب القادم أكثر .. أكثر ..لكنه ما زال مغموراً في الظلال .. بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول: ـ"أنت لي .. لا تنس هذا .. " لم يكن هناك داع للتلفت ولا البحث عمن يوجه له هذا الكلام .. إنه يخاطبك أنت .. هذا واضح .. وهذا الصوت لا يمت لهذا العالم .. كل شيء فيهلا يمت لهذا العالم .. ـ" أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر.." ثم يتراجع الظل للوراء وهو يردد : ـ"لا أحد .. لا أحد .."

Daydamony

هــو ...

لا يوجد الكثير مما يقال هنا ..
لقد انتهى الانفجار ...
كان الدخان في كل صوب، ومن العسير أن ترى يدك ذاتها .. لو أردت أن تحك رأسك لجهلت الطريق إليه .. تلك الرائحة .. رائحة البارود ورائحة الشياط ورائحة الـ .. شواء ؟
نعم .. للأسف .. هناك أجساد محترقة وسط هذا الزحام .. حين ينقشع الدخان قليلاً ترى تلك الكتلة من الأجساد التي تحولت إلى عجين .. مشهد شنيع لهذا لن أصفه من فضلك .. بعض قطع الخشب تحولت إلى شعلات صغيرة، تلفظ أنفاسها .. لقد كانت هنا مأساة، لكنها انتهت لحسن الحظ .. انتهت نهاية دامية، لكنها انتهت .. ككل شيء أليم .. المريض الذي يعوي ألماً وقد غرق في دم وصديد، ثم يأتي الموت ليداوي كل هذا في لحظة ..
ينهض وهو لا يعرف حقيقة إن كان ينهض ..
كانت دوامات تجتاح رأسه فلا يعرف من هو .. ولا كيف تتحرك تلك الأعضاء الكثيرة الخارجة منه .. هناك يدان وقدمان .. هناك فم وأنف وأذنان .. كلها موجودة لكنه لا يملك أدنى فكرة عن كيفية التحكم فيها ..
أخيراً عرف أن عليه أن يأمر ذراعه لتتجه إلى أنفه ..
حين عادت الكف كانت ملوثة بالدماء .. إنه في حال سيئة حقاً..
ثم ذلك الصداع !.. تباً للصداع !.. هناك كرة معدنية تتأرجح داخل رأسه وتضرب جدران جمجمته من الداخل (بونج –بونج) .. يجب ألا يتحرك .. يجب ...
صوت صراخ:
- -تعالوا !.. هناك حي هنا !-
ثم ذلك العويل المميز لسيارات الإسعاف ..
إنه يعرف أن هذه سيارة إسعاف .. يعرف أن المكان هو مخزن قديم .. كان كذلك لأن أكثره تهدم .. فيما عدا هذا لا يعرف شيئاً على الإطلاق

- -إلي بجهاز محلول وزجاجة من الدكستران !-
- -لا يوجد يا دكتور ..-
- -إذن إلي بزجاجة محلول ملحي .. دكستروز .. زيت تموين .. أي شيء !... إننا نفقده !!-
كان راقداً على المحفة ينظر للسقف المتسخ للمستشفى العام، ويتساءل: لماذا يصرخ هذا الطبيب الشاب ؟ غالباً هو معدوم الخبرة . هذا هو السبب الوحيد، لأن صاحبنا لم يشعر قط بأنه يموت .. إن ذهنه صاف ووعيه هادئ .. لا يوجد ما يدعو إلى كل هذا الصراخ وهذه الهستيريا ..
يشعر بالإبرة تنغرس في وريده .. ثم يشعر بالسائل البرد يتدفق ..
إن هذا المصباح في السقف يطارده كأنه طبق طائر كابوسي يراقب الموقف ..خبرة مشاهدة العالم من أسفل .. بالضبط من القاع .. يقولون إن منظور (عين الطائر Bird's eye View) يجعلك ترى كل شيء ويشعرك بالتفوق، فماذا عن أن ترى كل شيء من هذه الزاوية حيث كل شيء أكبر وأقوى منك ؟.. لابد أن هذا هو منظور (الحشرة) أو (النملة)..
يغمض عينيه ويحاول أن يهدأ ..
تتداخل الرؤى من جديد .. الإحساس بالزمن مختلط كأي شيء آخر ..
يسمع من يقول له:
ـ -هل تستطيع الإجابة ؟-
ثم من يقول له:
ـ -هل تعرف ما حدث ؟-
ومن يقول له:
ـ -من أنت ؟-
لكنه بالفعل لا يعرف أي شيء عن هذه التفاصيل .. المفترض أن يعرف اسمه لكنه لا يعرفه .. والأهم أنه لا يشعر بقلق لذلك .. لماذا يجب أن يحمل كل واحد اسماً ؟.. هذا لن يغير شيئاً.. الحشرة التي وجدتها في الفناء الخلفي وأنت لا تعرف اسمها .. هي مثلك لا تعرف اسمها .. هل هذا يمنع أنها موجودة ؟..
يغمض عينه ويتجاهل الأصوات ..
صوت آخر يقول:
ـ -أعتقد يا (عماد) بك أنه فقد ذاكرته ..لن نتمكن من أخذ أقواله-
صوت آخر يقول:
ـ -هذا يحدث بعد الصدمة .. إنه تفاعل (ما بعد الارتجاج).. أعتقد أنه سيسترد ذاكرته قريباً..
-
ـ -نرجو هذا ..-
ثم يتنحنح الصوت بوقار ويملي شيئاً لواحد بجواره:
-
-وكانت حالة المصاب لا تسمح باستجوابه، لذا قررت النيابة تأجيل أخذ الأقوال إلى حين تحسن حالته..-

حسن ..
هذا هو الوقت الذي يمكن للعجوز (رفعت إسماعيل) أن يظهر فيه ..
كنت في تلك الفترة قد انتهيت من إحدى قصصي التي لا تنتهي .. من قرءوا منكم قصتي مع النحس والرقم المشئوم، يمكن أن يعرفوا بالتقريب كيف كنت في تلك الفترة ..
لقد عدت أمارس عملي، وبدت لي حكاياتي السابقة بعيدة جداً.. أحب حين أنهي فصلاً من حياتي أن أتخلص منه فلا أحمل معي شيئاً منه ..
ذهبت للمستشفى ذلك الصباح، فجلست أولاً في مكتبي أرشف الشاي وأطالع جريدة الصباح ..
كان هناك حادث انفجار مروع قد وقع في مخزن قديم في نفس المنطقة .. يبدو أن خمسة أشخاص قد لقوا حتفهم، والصورة المنشورة غير واضحة لكنها توحي بإمكانات بشعة ..
يبدو أنه انفجار أسطوانة غاز أو شيء من هذا القبيل ..اعتدت أن يكون الموت مدققاً أنيقاً يختار كل ضحية على حده، لكن هذه الملحمة المجنونة من الأشلاء والبقايا شيء يفوق تحملي وفهمي للأمور ..
مرت عيناي على الخبر بسرعة ونسيت كل شيء عنه خلال ثانيتين ..
وبينما أنا أطالع تقريراً عن توترات الهند وباكستان التي لا تنتهي أبداً، دخل د. (رأفت) صديقي العتيد الغرفة، وجلس أمامي
قال لي:
- -كانت المستشفى في هرج ومرج أمس ..لقد جلبوا ضحايا الحادث إلى هنا .-
رفعت رأسي ورشفت جرعة من الشاي قائلاً:
- -هل يوجد من يصلحون لدخول المستشفى ؟.. على قدر علمي لم ينج أحد ..-
- -لكن سيارة الإسعاف جلبت الجميع هنا .. على كل حال لم ينج إلا واحد ..-
- -لابد أنه تحول إلى عجين.-
- -ليس بالضبط .. -

وخرجنا من المكتب وبدأنا نمارس طقوس حياتنا اليومية .. كان هناك طن من المشاكل، وقد قررت أنني سأقيم احتفالاً صغيراً في اللحظة التي يطلقون فيها سراحي ..
على أنه في الواحدة بعد الظهر جاء من يخبرني إنهم بحاجة إلي في قسم الطوارئ ..
يبدو أن الأمر يتعلق بذلك الناجي الأخير .. وكان هذا أمراً روتينياً يتكرر من حين لآخر على كل حال ..فلأنته بسرعة وأعود لداري ..
اتجهت إلى هناك لاهثاً من جهد صعود الدرج ـ طابق واحد طبعاً ـ فوقفت أجفف عرقي وألتقط أنفاسي .. إن قسم الطوارئ أقرب إلى حلبة سباق خيول أو فقرة في السيرك القومي .. لا بأس من أن تتلقى دفعة تلقيك أرضاً أو يضربك احدهم كوعاً يصيبك بنزف في الرئة ..
جاء الطبيب الشاب المكلف بالطوارئ، وهو من الطراز العصابي الذي يتلمس عويناته كل ربع دقيقة، ولا يكف عن بعثرة الأوراق في كل مكان .. صافحني بيد باردة وقال:
ـ -نرجو ألا نرهقك .. هذا المصاب جاءنا أمس في حادث الـ ..-
قلت في ملل:
ـ -نعم . نعم .. انفجار أسطوانة غاز .. الخ .. اختصر يا بني ..-
ـ -إنه يعاني حالة فقر دم متقدمة .. هذا ..-
وأوقع عشرات الأوراق، وهو يبحث عن ورقة بعينها .. حتى شعرت بأن العصاب يتسرب إلى أنا نفسي .. أريد أن أهشم رأساً أو رأسين ..
ـ -لحظة .. هو ذا .. لا .. انتظر .. هو هنا ..-
ثم صاح في ممرضة عصابية بدورها يطلب صورة الدم .. فانطلقت تبحث عنها، فقط لتتذكر أنها ـ الصورة ـ في جيبه .. أخيراً أخرج ورقة مكرمشة كأن كلباً كان يلوكها وناولني إياها ..
الهيموجلوبين Hemoglobin - وهو صبغ الدم الحيوي - لا يتجاوز ثلاثة جرامات ..هذا رقم مخيف بدون أية تفاصيل طبية أخرى ..
قلت له في صبر:
ـ -أولاً لنتفق على شيء .. أنا أشك بشدة في هذا الرقم .. لابد أن صاحبه قد توفي منذ ساعة ..-
ـ -قمنا بإجراء التحليل ذاته مرتين ..-
- -ثانياً لا أعرف سبب دهشتك لأن جريحاً فقد دماً .. على قدر علمي كل الجروح تنزف دماً..هذه هي خلاصة الخبرة التي كونتها بعد كل هذه الأعوام في ممارسة الطب-
اتسعت عيناه رعباً من وراء عويناته التي تكبر العينين أصلاً وصاح:
- -لكنه لم ينزف يا سيدي .. !... لا يوجد جرح واحد في جسده .. إنه سليم كالجرس !-

هــو القادم ليلاً...

فتح عينين محمرتين ونظر لي ..

قلت له في صبر:

- -هل تعرف من أنت ؟-

إنها تلك النظرة الخاوية الغبية الزجاجية .. أعرفها وأفهمها .. ليست لدى هذا الشاب أدنى فكرة عن ذاته .. من الصعب أن تتعامل مع شخص لا يعرف من هو، لكن ليست هذه أعقد مشكلة أواجهها في حياتي ..

كان وسيماً ـ برغم حالته السيئة ـ له ملامح دقيقة أقرب إلى الشفافية .. هذه الوجوه الحساسة التي تدل على ذكاء عظيم حتى وإن كانت عيناه خاويتين مظلمتين .. أعتقد أنه في الثلاثين من العمر ..

أما الأهم ، فهو أن هذا ليس وجه رجل يعاني من فقر دم إلى هذا الحد المريع ..

قلت للطبيب الشاب:

ـ -إنه ملوث بالدماء .. -

ـ -ليس هذا دمه بل دم الآخرين .. لقد حسبناه جريحاً في البدء ..-

ـ -حتى لو افترضنا أن رقمك صحيح، ففقر الدم يحدث لحشد من الأسباب .. ربما هي عملية تكسير واسعة النطاق لكريات دمه الحمراء .. ربما توقف نخاعه العظمي عن العمل .. لا ينبغي أن يكون النزف هو السبب ..-

قال في توتر وهو ينظر لشخص ما لا وجود له:

ـ -حينما نجد شخصاً مصاباً في حادث، يخطر لنا أول شيء أنه .....-

انحنيت على المصاب وتفحصته بدقة .. لا يوجد شيء مريب فيه .. أعتقد أنه يحتاج إلى مزيد من الفحوص المعملية كي نحكم على سبب فقر الدم .. لو كانوا يعتقدون أنني سأفعل مثل (أوسلر Osler) وأتشمم الهواء، ثم أعلن التشخيص الصحيح فهم مخطئون ..

سألت الفتى بصوت هادئ:

ـ -أنا ادعى (رفعت إسماعيل).. طلبوني كي أعنى بفقر الدم الذي تعانيه .. هل تذكر ما حدث ؟-

بلل شفته السفلى بلعابه وقال بصوت كالفحيح:

- -لا اذكر .. وجدت نفسي وسط جثث ودخان .. كان هذا مريعاً..-

- -ولماذا ذهبت إلى هناك ؟-

- -لا اعرف ..-

قال الطبيب الشاب وهو ينقل ساقاً بدل ساق:

- -إنه يعاني (ما بعد الارتجاج).. يعتقدون أنه سيتذكر كل شيء خلال أيام ..-

كان متوتراً بالطبع لأن طناً من الأعمال ينتظره، ولا وقت يضيعه أكثر مع مريض واحد ..مشكلتي هي أنني لا ألقى إلا أشخاصاً أكثر مني انشغالاً في كل مكان، حتى لأشعر بالخجل من نفسي.. لهذا أمسكت بتذكرة المريض وشرعت أدون رأيي في الموضوع طالباً حشداً من فحوص المختبر ..

قلت له وأنا أغادر المكان:

- -بمجرد انتهاء الفحوص أطلبوني ولسوف نعيد تقييم الموقف، لكن لا يوجد سبب يمنعك من إبقاء هذا الرجل حياً إلى ذلك الحين .. هذا المريض يحتاج إلى نقل دم عاجل-

- -نحاول ترتيب هذا ..-

هكذا أنهيت عمل هذا اليوم، ورحت أحلم بالعودة لداري فالنوم ..

الليل يعم المستشفى ..
لا يوجد ظلام بالمعنى الحقيقي للكلمة، لكن هناك الكثير من السكون .. من الأضواء الخافتة .. همسة من ممرضة لأخرى .. أنين مريض .. عواء قط تسلل من مكان ما لا يوحي أبداً بأنه قط فعلاً...
وفي الظلام يرقد ذلك الشاب الذي عجزنا حتى اللحظة عن معرفة اسمه .. يرمق السقف ..
أحياناً ينظر إلى الفراش المجاور، حيث يغفو مريض آخر أسوأ منه حالاً .. لكنه يحسده بشدة .. برغم كل الألم والمعاناة والخراطيم الخارجة والداخلة منه وإليه، فإن هذا البائس يعرف من هو .. حتى لو مات فهو يعرف اسمه .. يعرف أنه (إبراهيم) أو (شفيق) أو ..وأنه قد مات ... هناك أرضية يقف عليها قبل أن يرتفع للسماء، أما هو فلا يعرف شيئاً على الإطلاق .. فيما عدا افتقاره إلى الكينونة بالكامل، فإنه في حالة صحية ممتازة ..
ترى هل يسترجع شيئاً ؟.. لا يعرف ..
ثمة ذلك التشوش الذهني الذي تعرفه حين تصحو من النوم على رنين الهاتف أو جرس الباب .. شعور لحظي مزعج يزول سريعاً، لكن المشكلة هنا أنه دائم ..
رباه !.. يشعر بالاختناق ! .. يريد أن يزيح هذا الغطاء الثقيل عن نفسه فلا يقدر ..
يقول الأطباء إنه سيعرف الحقيقة خلال أيام .. هل يستطيع الانتظار ؟
سمع صوت خطوات فنظر إلى مدخل العنبر ..
إنها الممرضة اللطيفة على الأرجح .. فتاة سمراء جذابة لا تكف عن الابتسام، وكانت نوبتجية الليل تريحه بشكل خاص لأنها ـ الفتاة ـ تأتي من عالمها الساحر لتسأله عن حاله ثم ترحل..
لكن لا ..
هذه الخطوات أثقل بالتأكيد من خطوات فتاة في الثامنة عشرة من عمرها تنتعل حذاء مطاطياً...
نظر بعناية أكثر إلى مدخل العنبر ..
في البدء تصور أن هذا خداع بصر .. الظلال تجيد هذا الطراز القذر من الألعاب .. وهو لا يعرف من هو، لكنه لم ينس خبرات الفيزياء التي عرفها ..
هذا الخيال الطويل .. الطويل جداً حتى ليوشك على لمس سقف العنبر، يرتمي أمامه ظل طويل جداً تضاعف عدة مرات . لو كان الضوء قادراً على تفسير الظل فكيف يفسر مصدر الظل ...؟
والرأس..!

لايوجد رأس لهذا الشيء .. إن الكتفين ينتهيان فجأة ... ولا يعلوهما شيء ..!
هب في الفراش ونظر من حوله .. كل المرضى في غيبوبة لا يرون ما يراه هو .. وقد احتبس الصراخ في حلقه فلم يخرج أي صوت ..
يقترب القادم أكثر .. أكثر ..
لكنه ما زال مغموراً في الظلال ..
بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول:
- -أنت لي .. لا تنس هذا .. -
لم يكن هناك داع للتلفت ولا البحث عمن يوجه له هذا الكلام .. إنه يخاطبك أنت .. هذا واضح .. وهذا الصوت لا يمت لهذا العالم .. كل شيء فيه لا يمت لهذا العالم ..
- - أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر..-
ثم يتراجع الظل للوراء وهو يردد :
ـ -لا أحد .. لا أحد ..-
بعد دقيقة توارى تماماً..
لدقائق ظل صاحبنا في ذات الوضع الثابت .. وضع من يوشك على الوثب من الفراش ..العرق يغمره وصرخة مكتومة تحاول الفرار من بين شفتيه لكنها لا تستطيع
ما معنى هذا ؟.. ما هذا المسخ الذي جاء ؟.. وهل يعرفه ؟..من الواضح أنه يعرفه ..
كانت هذه هي الزيارة الأولى للقادم ليلاً....
لماذا أصفها بالأولى ؟.. لأنها تكررت في الليلة التالية بنفس التفاصيل .. لم يضف كلمة واحدة اخرى، ولم يختصر كلمة .. كأنه شريط سينمائي يعاد عرضه ..
ومن جديد تتكرر الأسئلة: من هذا القادم ليلاً ؟.. لماذا جاء ؟..
والسؤال الأخطر: ربما هذه هلاوس .. ربما أنا قد أصبت بالخبال ..

فيما بعد عرفت أن الفتى لم ينتظر أكثر ..
لن يبقى هنا دقيقة أخرى، ولن ينتظر زيارة رهيبة تالية ...
لقد أصابه ذعر حيواني غريب يسهل فهمه .. وعلى الفور وثب من الفراش، وكان يلبس ذات الثياب التي وجدوه بها .. لا تنس أن هذا مستشفى مجاني لا يملك زياً يلبسه للمرضى ..
وجد خفين تحت فراش المريض الذي يلاصقه، فاستعارهما أو سرقهما ..وسرعان ما كان يخرج من العنبر مترنحاً..
تمنى ألا يقابله احد .. لا من الممرضات ولا من القادمين ليلاً.. لحسن حظه انها الرابعة بعد منتصف الليل، حيث يغط الجميع في النوم ..
راح يتحسس طريقه عبر ممرات كئيبة المنظر (كافكاوية) الطابع، تتوارى منه القطط المتسللة، وتتغنى الجدران بصوت خطواته ..
هناك درج نزل فيه .. وهناك ممر طويل مظلم له رائحة المطهرات الخانقة ..
ثم هناك حديقة واسعة غير معتنى بها، تغني فيها صراصير الحقل .. هناك بوابة حديدية ورجلا أمن نائمان يلتفان بالأغطية .. هما لن يفيقا إلا لدى سماع صوت سيارة الإسعاف .. لا يمكن أن يفيقا لسماع قدميه ..
وأخيراً ـ في هذه الساعة المبكرة من صباح الغد ـ وجد نفسه في الشارع ...
ربما شعر بتحسن وربما لم يشعر ..
لكن كانت تنتظره مشكلة عويصة، هي مشكلة البحث عن مأوى ..

هــو القادم ليلاً حين يغفو الجميع...
ظلام الدرج ..
صوت الخطوات، ورائحة عطن .. تلك القطط السوداء الكريهة تتواثب هنا وهناك وقد منعها القادم الجديد من الانتهاء من أحشاء الدجاجة الذي ألقاه أحدهم ....
صبراً ولا تتعجل .. إن هذا الدرج ينذر بكارثة، ولو تعثرت في هذا الظلام لكسرت جمجمتك ..
قطة تكره أن تتخلى عن الشلو الذي تلتهمه، فترجع أذنيها للوراء كما تفعل المقاتلات الحديثة بجناحيها طلباً للسرعة، ويتحول وجهها إلى وجه عفريت، وتصدر ذلك الفحيح الثعباني الطويل المنذر بالويل .. قطة أخرى تصدر ذلك الصوت الطويل المولول الذي يصفه العامة بالـ (تعويص)...
أحياناً يخيل إليه أن النسبة الكبرى من تعداد القاهرة هي من القطط الضالة .. هو لم ير أكثر منها منذ عاد لعالمنا بعد ذلك الحادث ....
الآن عليه أن يجد المفتاح ....
يجب أن نقول إن فقدان ذاكرته لم يكن كاملاً.. ثمة رؤى تظهر وتتلاشى كأنها البرق يضيء الدغل ثم يتوارى .. وكان ضمن ما رآه ذلك الشارع .. ذلك الزقاق .. هذه الدرجات .. هذا الباب الذي يعرف يقيناً أن مفتاحه قريب ..
لو كان يحمله معه عندما وقع الحادث فمن المؤكد أنه فقده ..من الواضح أن جيوبه كانت خاوية تماماً وإلا لوجد رجال النيابة معه بطاقة هوية .. أي نوع من الهوية ..
المفتاح قريب لكن أين ؟
كان الآن يقف وحده في سطح مظلم .. هناك غسيل معلق على حبل .. غسيل لا يوحي بالثراء، وهناك كومة من أكياس القمامة المهلهلة التي عبثت بها القطط عبثاً.. أمامه الباب الخشبي الذي تم طلاؤه بطلاء رخيص، والذي لا يوحي بأية جودة في الصنع .. ربما لو دفعه بكتفه لتهشم .. لكنه يخشى أن يفعل .. ربما كانت رؤاه خاطئة بعد كل شيء ..ربما لم يكن يسكن هنا..

المفتاح !.. المفتاح !
هناك مفتاح .. لكن أين هو ؟
اتجه إلى سور السطح وراح يمرر أنامله على القرميد المتآكل.. ثمة ضوء خافت في ذاته يخبره أنه على الطريق الصحيح .. شخص ما في مكان ما فعل هذا الشيء أكثر من مرة .. الشعور الغامض يخبره بأنه هو ذات الشخص ...
آه !.. هاهو ذا !.. يده تصطدم بالجسم المعدني ..
يخرجها ليجد أن هذا هو المفتاح .. وبقدر ما سره أنه وجد الحل لقضاء ليلته، بقدر ما أسعده معرفة أن الفيلم الموجود في جمجمته لم يحترق بالكامل .. ما زالت هناك مشاهد كاملة سليمة ..
يدير المفتاح في القفل...
يدخل ...

أي وكر قذر هذا !
صحيح أن مشهد البناية والدرج لا يوحيان بأنه يدخل فندقاً خماسي النجوم، لكنه توقع ان تكون الأمور افضل بالداخل .. الواقع أن الداخل كان يعبر بدقة عن الخارج ولا يوجد أي تناقض ....
ثمة مصباح كهربي صغير معلق من السقف يضاء بمفتاح في نفس السلك .. ضغط عليه فانطلق ضوء خافت كئيب يغمر الغرفة الضيقة ..
هناك فراش بلا (ملة) تقريباً .. عليه أغطية متسخة فقيرة، وهناك منضدة يبدو أنها تصلح لكل شيء ..
منضدة طعام ومكتب وكومود و(بوفيه) ومسند أقدام وسلم لتبديل المصباح .. الأرض مكسوة بقطعة من (الموهير) الرخيص الذي له ألف لون ..
ثمة جهاز مذياع عتيق من الطراز الذي يربطون حجارته الجافة إليه بالحبال .. وهناك جرائد مفتوحة يبدو أن طعاماً كان يوضع فيها ..
لكنه لم يبال بهذه التفاصيل .. صحيح أنه تمنى لو كانت حياته أكثر يسراً، إلا أن مشكلته الآن كانت تفتيش هذه الغرفة بعناية .. لو كانت تخصه فهي بالتأكيد تحوي بعض أسراره ...
تحت الحشية وجد بعض المال .. إن خمسين جنيهاً في ذلك الزمن لا تقل أهمية عن خمسمائة جنيه اليوم .. ربما تتجاوزها ..هذا كشف مهم ..
لا توجد أوراق هوية.. هناك صورة فوتوغرافية باهتة معلقة على الجدار بلا إطار .. هو لم ير وجهه لكنه لم يفقد تلك الحاسة التي نطلق عليها (معرفة الذات) أو (التماهي).. لهذا لديه فكرة لا بأس بها عن ملامحه .. هذه صورته منذ أعوام لا شك في هذا .

هناك كتابان ... الأول يتكلم عن (دولة المماليك البحرية) والآخر يتكلم عن (النظرية النسبية).. ما معنى هذا ؟.. ما الخيط الجامع بين الاثنين وما هي اهتماماته بالضبط ؟.. هل هو عالم ذري من المماليك؟.. أم هو معلم تاريخ يهتم بالعلوم ؟.. أم ..؟
ما عمله ؟ .. هل هو متزوج ؟.. هل هو فرد من أسرة .. واضح تماماً أن هذا مسكن رجل واحد ..ربما نصف رجل لو أمكن ...
انتهى التفتيش فلم يجد شيئاً، وقدر أنه قد يعرف أكثر في الصباح ..
سوف يظهر الجيران ويهتف أحدهم: (سمير) .. أين كنت ؟... أو تهتف واحدة: قلقنا عليك يا (منصور).. أو يدق الباب محصل الكهرباء حاملاً إيصالاً للسيد (محمد المنياوي) أو السيد (سامح مكرم).. المهم أنه سيعرف كل شيء في الصباح ..
كم الساعة الآن ؟.. لا يعرف .. كان يعرفها بدقة في المستشفى من مواعيد توزيع الدواء، أما الآن فهو يعرف فقط أنه في وقت ما بين الرابعة صباحاً والنهار الصريح ...
عليه أن ينام .. وغداً يوم آخر ....
هناك منامة واضح أنها تخصه .. هكذا استبدل بثيابه الغارقة بالدم وآثار الحادث ثياب النوم، ولم يدر متى ولا كيف نام ..

هــو القادم ليلاً حين يغفو الجميع..وحين يهلك آخر شعاع ضوء..
في الصباح سمع قرعات على الباب ..
لعل هذا هو ما ينتظره بالضبط .. اتجه للباب وفتحه وهو مبلبل الأفكار ..
فتاة حسناء . هو رآها حسناء .. ليست من أرقى طبقة ممكنة ولعلها تنتمي بالفعل لهذا المكان .. كانت تحمل صحفة عليها بعض الطعام .. طبق فول وبضعة أرغفة من الخبز .. بعض أقراص الفلافل ..
ضحكت في بشاشة حين رأته .. سمراء من الطراز الذي يسمونه (مليحة)..
- -إفطارك يا (بدر).. أين كنت أمس ؟-
ونظرت حولها لتتأكد من أحداً لا يراها .. إذن أنت (بدر).. هذا جميل .. وليتك تقدر على انتزاع معلومات أخرى ..
تناول منها الصحفة وقال مرتبكاً:
- -كنت مع صديق .. شكراً..-
- -هل زرت (فهمي السلاموني) ؟.. ذلك المحامي في (السبتية) ؟.. توقعت هذا ..-
ونظرت للوراء وهمست:
- -ستظهر أمي في أية لحظة . لن أطيل الحديث !-
ثم وقفت ترمقه وهو يضع الصحفة على المنضدة .. إعجاب لا يخفى على أحد في عينيها .. إنها تحبه بجنون .. والأهم أنه يشعر بفخر لهذا ..
من الواضح أن هذا الإفطار مهرب دون علم ذويها .. ساكن السطح العزب الذي تعنى به جارة شابة لأنها تحبه .. لم ينس الأفلام العربية على كل حال ..
قالت له وهي تواصل التلفت:
- -بالهناء والشفاء .. أتمنى أن يأتي اليوم الذي أكف فيه عن التسلل .. أتمنى أن أصارح أمي بالحقيقة ..-
ثم استدارت وهي تلقي كلمتها الأخيرة:
- -سأقول لها بوضوح إنك زوجي أمام الله ورسوله .. لا أحد يجرؤ على الاعتراض !-

جلس يعبث في طبق الفول عبثاً كأنه يعبث في أفكاره ذاتها .. لم يلحظ أن ربع ساعة مر وهو مستمر في تقليب الفول بالزيت دون أن يرفع اللقمة لفمه ..
إذن هو متزوج .. !.. والأهم أنه متزوج سراً.. !.. ولكن لماذا ؟...
لو استطاع للحق بها وحكى كل شيء .. ثم يسألها السؤال الأهم: من أنا بالتحديد ؟,...
لكنها لن تصدق .. ستصاب بالهلع ولن تعطيه معلومة واحدة كاملة ..
أخيراً رفع اللقمة إلي فمه وازدرد ما بها .. طعم الفول سيئ فعلاً.. لا يعرف السبب لكن هذه الفتاة ليست أفضل طاهية في الكون .. هذا لو كان هذا الفول يطهى ..
كان هناك موقد صغير في الحجرة، من الطراز الذي يعمل بالكيروسين، لذا بحث حتى وجد عود ثقاب، وأشعل الموقد .. ملأ براد الشاي وأعد لنفسه بعضه .. حتى الشاي سيء المذاق لا يروق له .. لكنه أفضل من الطعام على كل حال ..
ارتدى الثياب التي وجدها هناك ..ثم نزل من داره ..
فقدان ذاكرة غريب النوع هذا الذي يمر به .. إنه يذكر أرقام الحافلات ويعرف بالضبط كيف يصل إلى وجهته .. فقط هناك بقعة سوداء تحيط بكل ما يخص كينونته ..
سوف يذهب إلى (السبتية).. إلى ذلك المحامي الذي عرف اسمه .. لن يكون الأمر صعباً.. هناك يعرف المزيد عن ذاته .....
كان يعبر الشارع الذي هو أقرب إلى زقاق ضيق .. تنتثر فيه ورش الحرفيين، ويلعب فيه الصبية بكرة ممزقة..لقد ابتعد عن البيت كثيراً...
هنا سمع من يستوقفه صائحاً:
- -(كمال)..

التفت للوراء ليرى شاباً في العقد الثالث من العمر، له ذقن نصف نامية، ومظهر فظ يوحي بأنه من معتادي المتاعب ..
الشاب يواصل الكلام:
- -حددت لي موعداً خلف المدرسة القديمة، وقلت إن الشيء معك .. ذهبت هناك وانتظرتك ساعة أو أكثر، ثم قررت انك تتلاعب بي .. إنه ليس معك .. أليس كذلك ؟-
بم يرد ؟... طبعاً الشيء ـ يعلم الله ما هو ـ ليس معه .. لكن هل يفلت من هذه المحادثة ؟
قال بصوت مبحوح:
- -نعم ليس معي .. لكني سأرتب لك الموضوع .. الليلة .. ربما ..-
قال الشاب وعيناه تنذران بالخطر:
- -أنت تعرفني .. لا احد يخدعني .. لماذا حاولت أن تتلاعب بي ؟-
- -لم أتلاعب .. ظننت أنني قادر على تدبيره .. أنت تعرف هذه الأمور ..-
نظر له الشاب بريبة وقال وهو يعتصر ذراعه:
- -ما بك ؟.. لا تبدو (على بعضك) اليوم .. هل أنت مريض ؟-
- -ربما .. ربما ..-
هز الشاب رأسه وقال وهو يتأهب للرحيل:
- -(كمال).. أنت تعرف أنني لا امزح ولا أحد يلعب بي .. قليلون حاولوا ولم يجدوا الوقت الكافي للندم ..-
- -سأتذكر هذا ..-

وانصرف الشاب، بينما عاد هو إلى حالة انعدام الوزن التي مر بها من قبل .. (كمال) أم (بدر) ؟..متزوج ويلتقي رجالاً مريبين ليلاً ليعطيهم (أشياء).. لا تحتاج إلى خيال خصب كي تقدر أن هذه الأشياء ضد القانون .. مخدرات على الأرجح ... من هو بالضبط ؟
واضح أنه لغز حقيقي .. يقول (إيليا أبو ماضي) في (الطلاسم):
أنا لغز .. ومجيئي كذهابي طلسم
هو لا يعرف بيت الشعر لكنه يعبر عن حاله بدقة ..
هكذا اتجه إلى (السبتية) قاصداً مكتب المحامي ...

- -أستاذ (محمود) ؟. إن الأستاذ يسأل عنك منذ الصبح !-
قالها له كاتب المحامي العجوز الجالس خلف المكتب المتداعي المغطى بالملفات ..
وأردف الرجل وهو ينهض متجهاً إلى دهليز ضيق في المكتب:
- -سوف يكون معك حالاً.. قهوة أم شاي ؟-
غمغم صاحبنا بكلمات من طراز (قهاي) أو (شاهوة) .. لم يسمعها الرجل على الأرجح ..
ماذا يدور هنا ؟.. من أنت بالضبط ؟
كان في أسوأ حال ممكن حين جاء المشروب الذي اتضح أنه (قهاي) فعلاً من مذاقه ،، وحتى استدعي لمقابلة المحامي (فهمي السلاموني)..
قال له الأستاذ، وهو رجل ممتلئ في منتصف العمر له صلعة لامعة:
- -الإجراءات تسير جيداً. ما لم يتدخل (جابر) بألعوبة أخرى .. أحياناً أحس أن الأمر لعبة شطرنج معقدة بين عقلي محاميين بارعين، وأرى أن عليك دفع جزء آخر من الأتعاب الآن !-
فكر قليلاً في شيء يقال .. ثم غمغم في شرود:
- -جميل .. جميل ..لكن ليس معي مال حالاً.. -
- -لقد انتهينا لتونا من بيع الفدان .. فلا تقل إنك أنفقت المبلغ كله ..-
فكر بعض الحين .. فدان .. إذن لماذا يعيش في ذلك البيت الحقير ؟.. هل لهذا الفدان علاقة بـ (جابر) ؟
لعبة شطرنج معقدة بين محاميين ؟... إنه موشك على الاختناق ..
قال بصعوبة:
- -الحقيقة أنني مرتبك ولا أعرف كيف أبدأ.. أريد مهلة أخرى ..-
قال المحامي نافد الصبر:
- -يجب أن تسرع قليلاً.. إن مدام (عزة) تلعب لعبتها بسرعة .. هي لا تقضي أياماً في التفكير مثلك، ولا تغيب عشرة أيام عن محاميها كما تفعل أنت معي .. -

ثم ضيق عينيه ونظر إليه في خطورة، وقال ضاغطاً على كلماته:
- -هم لا يمزحون .. يعرفون جيداً ما يريدون ويحققونه ...أما أنت فتتأرجح بين الحزم والوداعة .. بين البلاهة والخبث .. بين الإقدام والتردد ..-
ثم كوم أوراقه فوق بعضها وقال:
- -أرى أن تتصل بي غداً على أقصى تقدير .. سأوجه لهم ضربة قانونية شديدة الإيلام فقط لو شعرت بأنك تعضدني .. لن أتصرف وحدي كما تعلم ..-
كان في هذا إيذاناً بانتهاء المحادثة ..
ونهض مترنحاً واتجه إلى الباب ....
هز رأسه محيياً الكاتب، وبدأ يهبط في الدرج .. الشارع من جديد ....
يريد أن ينفرد بنفسه .. يريد أن يعرف معنى هذا الذي يسمعه ..يرمق الناس في شرود ..
- -بس س س !.. (محمود) !-
نظر وراءه بحثاً عن صاحبة الصوت فلم ير أحداً، ثم أدرك أن الصوت يخرج من سيارة (فيات) زرقاء تقف بقربه .. ثمة امرأة .. امرأة تطل برأسها من نافذة السائق وعلى عينيها نظارة سوداء، تتظاهر عن طريقها بغموض وأرستقراطية .. ليس بسيارة كهذه يا سيدتي ..

وشعر برضا شديد لأن هذه المرة الأولى التي يسمع فيها الاسم ذاته مرتين .. هذا يدعم جبهة (محمود) كثيراً .. هكذا ترجح كفة (محمود) على كفة (بدر –كمال)...
عبر الطريق في حذر . وانحنى جوار النافذة ..
امرأة في الثلاثين .. تتظاهر بأنها شقراء وبأنها راقية وثرية ..
قالت له من وراء العوينات السوداء:
- -هل ثمة ما يشغلك ؟.. اركب .. توقعت أن أقابلك في مكتب المحامي أو قربه .. -
دار وفتح الباب الأيمن، وجلس في تخاذل وإنهاك .. وشم رائحة عطر خانقة .. عامة من اللحظة الأولى أعطته المرأة انطباعاً من الافتعال والادعاء لم يحبه .. أما هي فانطلقت بالسيارة عبر الشوارع المزدحمة، وكانت قيادتها جيدة إلى حد ما .. لاحظ أنه في ذلك الزمن كان من العسير ـ أو المستحيل ـ أن ترى امرأة تقود سيارة ..
قالت له بعد صمت طال:
- -(محمود).. أعرف أنك غاضب .. لكنني أعرف كذلك أنني سامحتك-
ثم مدت يدها تضبط مرآة الرؤية الخلفية وقالت:
- -أنت تعرف أننا زوجان متحابان .. ولن تفرقنا هذه الألاعيب القانونية !-

هــو القادم ليلاً حين يغفو الجميع..وحين يهلك آخر شعاع ضوء..عندئذ ترتج الردهات بصوت خطواته ..

الظلام يبدو أكثر كآبة حين تواجهه وحدك في غرفة خافتة الإضاءة، على سطح بيت متداع ..
هو يجلس ويرمق المصباح المتدلي من أعلى ..ويفكر ..
المشكلة هي أن عقله مبلبل لا يقدر على التفكير الممنطق المرتب، فلا يخطر بباله أن يرتب الاحتمالات على الورق أو يصل بين هذه المعطيات ..
قال الأطباء إن الارتجاج سيشفى، وسوف تعود ذاكرته .. لا يبدو أن هذا يحدث .. بل إن الأمور تزداد جهامة وتعقيداً.. في كل لحظة يكتشف من حياته جانباً لم يعرفه من قبل، فلو اتضح أنه يطير أو أنه زعيم لوردات المخدرات في (كولومبيا)، أو قابله رجل من المخابرات السوفييتية ليسأله عن شحنة (البلوتونيوم)، فلن يندهش كثيراً..
- -أنا زوجتك .. لن تنسى هذا ببساطة .. أعرف أنها مغامرة تورطت فيها بسبب تهورك، لكني اعرف كذلك أننا قادران على نسيانها ..-
قالتها له وهي تقود السيارة وهو صامت كالقبر ..
قالت له كذلك:
- -لن اطلب منك رداً الآن .. سوف انتظر حتى الغد ..-
ثم تذكرت شيئاً فأخرجت ورقة من حقيبتها بيدها اليمنى، بينما عينها على الطريق ويدها اليسرى على المقود:
- -هذا هو رقم هاتفي الجديد .. أنت لا تعرفه فقد تغير .. أطلبني في أي وقت وأبلغني قرارك-
هذا جميل .. كان يرغب في إبقاء همزة الوصل، لكنه يخشى أن يسألها .. المفترض أنه يعرف كل شيء عنها ..
ثم استدارت لترمقه بنظرة جانبية طويلة من خلف العوينات السوداء، وقالت:
- -أنت لا ترى نفسك .. لقد صرت في حال مروعة مثيرة للشفقة .. يا لياقة قميصك !..منذ متى لم تستبدل ثيابك ؟.. هل حلقت لحيتك منذ ثلاثة أيام ؟...تبدو لي كالمجاذيب فلا ينقصك إلا أن تحمل مبخرة وتجول على المحلات تستجدي أصحابها ..-

ثم توقفت على يمين الطريق، وبدا أنها تنتظر ..
نظر لها في غباء، فقالت بلهجة نافذة الصبر:
- -الجريدة .. إنها عند المنعطف التالي، ولن أستطيع دخول الشارع المزدحم .. حسبتك ذاهباً إلى هناك ..-
قال بلهجة من اكتشف شيئاً مهماً:
- -نعم .. نعم .. شكراً .. كدت أنسى .-
وما لم يقله لها هو إنها أبعدته كثيراً جداً عن الدار التي يعيش فيها، فعلت هذا تطوعاً ودون أن يطلبه منها ..وهو ـ بالطبع ـ لا يملك أدنى فكرة عن كنه هذه الجريدة ..
هناك جريدة هنا يعمل فيها (محمود) أو له علاقة بها .. سيتذكر هذا ..
هو الآن في غرفته يفكر في ربط كل شيء من جديد .. لكنه يتوقف ..
هو يعرف يقيناً أن الباب مغلق، فلماذا هو مفتوح الآن؟
من صاحب الظل الذي يقف هناك ؟.. لقد تذكر !.. إنه هو ..لقد وجده كالعادة ..هو إذن ليس مرتبطاً بالمستشفى ..
يقترب القادم أكثر .. أكثر ..
لكنه ما زال مغموراً في الظلال ..
بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول:
- -أنت لي .. لا تنس هذا .. أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر..-
ثم يتراجع الظل للوراء وهو يردد :
- -لا أحد .. لا أحد ..-
بعد دقيقة توارى تماماً..
هذه المرة لم يبال بالخجل . لم يبال بأسئلة غريبة توجه له، لأنه ما من أحد يوجه له أسئلة كهذه ..
لقد غطى وجهه وراح يصرخ ..
يصرخ .....

لم يعد النوم ممكناً..
هكذا حكى لي فيما بعد، لذا قرر أن يفتح المذياع العتيق ويصغي إلى أي شيء ينسيه هواجسه ..
حينما فتح المذياع سمع صوت رجل على شيء من الوقار ـ كذا قال ـ يتكلم مع مذيع شاب متحمس .. يبدو أنه برنامج إذاعي ليلي، ويبدو ان فكرته قائمة على تلقي مكالمات المستمعين.. لكن الغرض هو سماع قصة مرعبة يحاول هذا الرجل الوقور أن يدلي بدلوه فيها ..
سمع المذيع يقول:
- -د. (رفعت إسماعيل).. أستاذ أمراض الدم بكلية الطب جامعة ...... هو ضيفنا الدائم هناء ونحن جميعاً نعرف خبراته في مجال ما وراء الطبيعة ..-
والرجل يقول:
- -لا أعتقد أن أحداً يملك إجابات حول هذا الموضوع .. أنا فقط سمعت أسئلة أكثر من غيري ..-
هذا الصوت !.. إنه يعرفه بالتأكيد .. والاسم !..
- -أنا أدعى (رفعت إسماعيل).. طلبوني كي أعنى بفقر الدم الذي تعانيه .. هل تذكر ما حدث ؟-
يا لها من مصادفة !.. هذا الرجل كان طبيبه في المستشفى، والآن يتضح أن له خلفية عن أسرار عالم ما وراء الطبيعة .. لا توجد خيارات كثيرة .. لابد من أن يتصل بهذا الرجل غداً..
أين يجده ؟.. الأمر سهل .. أستاذ أمراض دم بكلية طب (...).. وهو يعمل في ذات المستشفى الذي كان فيه ..
سيجده غداً... هذا أكيد ..

هــو القادم ليلاً حين يغفو الجميع..وحين يهلك آخر شعاع ضوء..عندئذ ترتج الردهات بصوت خطواته ..إنه قادم نحوك أنت ..
- -د. (رفعت إسماعيل) ؟-
بالفعل لم يجد عسراً في العثور على مكتبي .. بل إنه ذهب إلى قسم الطوارئ ليسأل برغم إنه ـ من الناحية القانونية ـ يعتبر فاراً من المستشفى .. لكن ما عرفه على الفور هو أنه لا أحد يلاحظ أي شيء في هذا المكان .. ولا أحد يذكر أي واحد آخر ..
رفعت عيني وبدا لي الوجه مألوفاً...هاتان العينان وهذه الملامح الذكية ..
ابتسم وقال:
- -لابد أنك تذكرني .. المريض الذي قمت بمناظرته من يومين ..-
هنا تذكرته على الفور، ودعوته للجلوس.. طبعاً لم يتصل بي أحد ولم يبلغني بتقارير المختبر .. هذا متوقع فليس علي إلا أن ابحث عن النتائج بنفسي لو كنت متحمساً إلى هذا الحد ...
- -هل تذكرت اسمك ؟-
- -تذكرته ..- ـ وابتسم بغموض ـ -ربما أكثر من اللازم ..-
لم أفهم هذا الجزء لكني قدرت أنه سيفسر أكثر .. عاد يسألني في شك:
- -هل أنت صاحب البرنامج الإذاعي الذي ....؟-
-نعم . أنا هو .. وقد بدأت أفهم أن استشارتك لي لن تكون طبية ..-
- -هي خليط من كل شيء ...-
وجلس وحكى لي ما عرفتموه أنتم من قبل .. سأتركم قليلاً حتى اسمع دون تدخل منكم حتى لا أكون انطباعات مسبقة .. أفضل أن أسمع القصة من فمه هو ..

لما انتهى من قصته تثاءبت .. لا عن ملل ولكن عن إحباط ..
لا أملك له حلولاً جاهزة على الإطلاق ..
قلت له:
- -هناك مشكلتان في حياتك .. أولاً من أنت وماذا تعمل بالضبط ، وكيف وجدت نفسك في الانفجار ؟.. ثانياً من هو ذلك القادم ليلاً ؟-
ثم أمسكت بورقة ورحت أخط عليها بعض المعلومات:
- -لنكن منطقيين .. أعتقد أن القصة كما يلي: أنت صحفي يدعى (محمود)... متزوج ممن تدعى (عزة) .. ربما موسر كذلك لأن لديك فدادين تبيعها .. لابد أنك قمت بإحدى المغامرات التي يقوم بها الصحفيون .. انتحلت اسماً مزيفاً هو (بدر) وأقمت في حي شعبي، وتورطت مع أشخاص مريبين .. أعتقد كذلك أنك تورطت في الزواج من تلك السمراء الحسناء ..
قررت أن تحصل على الطلاق أو شيء من هذا القبيل عن طريق (فهمي) المحامي .. بينما زوجتك الأولى وكلت من يدعى (جابر) .. ثم .. بوم !.. يحدث الانفجار الذي لا نعرف شيئاً عن سببه .. وجدت نفسك في هذا الوضع تحاول تذكر من أنت حقاً..-
نظر إلى قدح القهوة الذي طلبته له.. أعتقد أن قهوتنا لم ترق له لأنه لم يمسه ..فكر قليلاً ولم يبد راضياً ..وقال وهو يحك ذقنه:
- -قصة معقدة أكثر من اللازم .. مصادفات عديدة .. ثم لماذا ناداني ذلك المشبوه باسم (كمال) ؟.. المفترض أن سكان الحي عرفوني باسم (بدر)..-
كومت الورقة وألقيتها في القمامة وقلت مغتاظاً:
- -هذا هو ما استطعت استنتاجه .. لو كنت تبحث عن قصة متناسقة درامياً فعليك بالذهاب إلى (نجيب محفوظ) أو (محمود تيمور)-

عاد يتساءل:
- -ومن هو القادم ليلاً ؟-
- -أعتقد أنك في حالة تسمح بالهلاوس السمعية والبصرية .. لاحظ أنه لم يمسسك بضر .. هكذا تفعل الهلاوس..-
بدت عليه خيبة أمل لا شك فيها .. هذه مشكلتي الدائمة: كطبيب يتوقعون أن أرى المريض فأصيح: هذه حالة من داء (جلتسمر هركليان) بلا شك .. وعلاجها كذا وكذا ...، وكخبير ميتافيزيقي يتوقعون أن أصيح: هذه لعنة إزتيكية قديمة أعرفها .. وطريقة علاجها هي كذا وكذا ....
المشكلة هي أنني أكثر ذكاء مما يوحي به مظهري، لكني اقل ذكاء مما توحي به كلماتي ...
قال لي:
- -وماذا ترى أن أفعله الآن ؟-
- -نفس ما فعلته أمس .. ابق حياً وقطعة واحدة .. أعدك أنني سأواصل البحث..فقط أعتقد أنه من الحكمة أن تخبر زوجتك الأولى (عزة) بما حدث لك .. هذا سيوفر لك الكثير .. ربما هي تعرف أكثر عن سبب تواجدك هناك-
أعطيته رقم هاتف بيتي وعنواني في حالة ما إذا احتاج إلى شيء .. وبعد انصرافه بقليل أدرت قرص الهاتف ..
طلبت قسم الطوارئ طالباً نتائج الاختبارات التي أجروها عليه حين كان في المستشفى .. بدا الضيق على الطبيب الشاب، فقد أغلق هذا الملف ومن المستحيل أن يجد ما أريد وسط كل هذه الأوراق ..لكنه كان يعرف أنني قادر على الحصول على ما أريد عن طريق الاتصال برؤسائه..

أما الشيء الثاني فهو أنني فتحت الدرج الذي أتخلص فيه من الصحف .. عامة ألقي بالصحف فيه حتى يصير غير قابل للغلق، عندئذ أحمل معي كومة منها، لأنها تصلح دوماً للف الخبز فيها ..
أرجو أن تكون الجريدة موجودة .. هاهي ذي .. حمداً لله ..
فتحت صفحة الحوادث وراحت عيناي تطالعان الخبر بدقة أكثر ...

انفجار أنبوب غاز يقتل خمسة شبان
كتب (.....): فقد خمسة شبان حياتهم إثر انفجار أسطوانة غاز في (...). وقع الحادث في منتصف الليل حيث أبلغ الجيران عن سماعهم صوت انفجار من مخزن مهجوراً كان يستعمل كمعمل للتخليل. وقد انتقل إلى مكان الحادث رجال الشرطة ورجال المطافئ، حيث تبين أن الانفجار قد دمر المخزن تماماً، وعثر على خمس جثث لشبان في العشرينات من عمرهم، كما وجد شخصاً واحداً سليماً. ولم يستطع رجال النيابة استجوابه لأن حالته لا تسمح، إلا أن المعاينة المبدئية ترجح انفجار أنبوب غاز في المخزن. وتواصل النيابة التحري عن سبب إحضار الشبان أنبوب غاز معهم في هذا المخزن، والكيفية التي انفجرت بها.

بصرف النظر عن نصب نائب الفاعل (شخصاً) وبالتالي صفاته، ونصب صفة مكسورة (مهجوراً)، فهذا شيء يمارسه الجميع .. ويبدو أن الناس جميعاً يعتقدون أن نصب الكلمات يجعلها تبدو أدق نحوياً..
هذا هو كل شيء وهو لا يختلف كثيراً عما قاله الفتى، لكن هناك شيئاً مهماً هو أنه لا يعرف أي شيء عن سبب تواجده ورفاقه هناك.
قمت بطلب رقم على الهاتف .. بعد قليل جاء صوت صديقي د.(عبد الغفار) .. وهو من الأشخاص الذين أتصل بهم مرة كل عامين لأجل مصلحة ما .. علاقة بسيطة جداً قوامها المنفعة من طرف واحد ..
- -(رفعت) أيها العجوز .. لم تمت بعد-
- -طبعاً وإلا لوجدت جثتي عندكم ..-
أنتم تعرفون أن د. (عبد الغفار) يشغل منصباً مهماً في الطب الشرعي .. هذا يجعله لا يتكلم على راحته لأن هذه أسرار عمل، لكني بالفعل كنت أريد معرفة تفاصيل أكثر عن الحادث ..
قال لي في تحفظ:
- -هذا كلام لا يقال عبر الهاتف .. لماذا لا تأتي لي في المصلحة لنواصل الكلام ؟.. لكن دعني أخبرك بشيئين: أنت لن تطلع على جثث ولن ترى ملفات .. اتفقنا ؟-
- -هذا مفهوم ..-
- -هناك لغز حقيقي يحيط بهذه القضية، وهذا سبب عدم تسلم أهل الضحايا جثث ذويهم .. -
ثم قال وهو يضع السماعة:
- -لن أقول أكثر .. لكني فعلاً بحاجة إلى رأيك-

هــو القادم ليلاً حين يغفو الجميع..وحين يهلك آخر شعاع ضوء..عندئذ ترتج الردهات بصوت خطواته ..
فرغت من شرب القهوة التي طلبها لي د. (عبد الغفار).. كان رجلاً رسمياً جداً غارقاً في عالم الأحراز والشمع الأحمر والمظاريف الحكومية الصفراء الكئيبة .. مهنته تجعله أقرب إلى وكيل النيابة منه إلى الطبيب..
قال لي وهو يتفحص أحد الملفات:
- -هناك خمس جثث في مكان الانفجار .. الصفة التشريحية هي .... هل تريد التفاصيل ؟-
قلت في تهذيب:
- -لو كانت لا تتمشى مع حدوث انفجار .-
- -لا .. كلها تتفق مع الانفجار.. الشباب كلهم في سن متقاربة ومعهم أوراق هوية، وقد تعرفناهم جميعاً.. يبدو أن رجال الشرطة يحاصرون ذويهم بالأسئلة .. أرجح النظريات هي أنهم كانوا يعبثون أو يجربون تجربة غامضة ما، لكن اسطوانة الغاز انفجرت فيهم ..
أسطوانات الغاز هذه الأيام لا تفعل شيئاً سوى الانفجار.. إنها طوربيدات لو أردت رأيي ..-
ثم أشار لي بقلمه وقال:
- -ذلك الفتى الذي كان في مستشفاكم والذي هرب، كان يشكل نقطة مهمة جداً.. أعتقد أنه كان يملك إجابات لكنكم تركتموه يفر من أيديكم ..-
- -إن الإهمال يحدث ..-
وابتلعت ريقي .. من الآن بدأت اشعر بالمسئولية القانونية الجسيمة التي يشكلها صمتي .. أنا لا أعرف مسكن هذا الفتى، لكن من الممكن جداً أن أبلغ الشرطة بكل ما قال .. هم سيجدونه .. هناك (فهمي السلاموني) المحامي وهو اسم لم أنسه ويصلح نقطة للبدء .. لكن ـ من جهة أخرى ـ هل من حقي أن أفضح ما قاله لي ؟.. لست محامياً ولا طبيباً ـ بمعنى انه سألني بصفتي الطبية ـ ولا قس اعترافات .. لا يوجد ما يمنعني من إبلاغ ما قاله للشرطة، وهذه نقطة يمكن أن توجه ضدي في ساحة أية محكمة فيما بعد ..

على كل حال قررت أن أصغي لد. (رمزي) تاركاً هذه التساؤلات الأخلاقية لما بعد ..
قال لي:
- -لقد تمزقت الجثث .. هناك أشلاء ... لكننا تمكننا من جمعها .. تصور أنك تجمع قطع لغز من ألغاز الأطفال التي يسمونها Jigsaw .. انتهيت من جمع الصور كلها .. لكن هناك أجزاء زائدة لا تعرف ما تفعل بها !-
تصلبت في جلستي ونظرت له غير فاهم .. قال:
- -نعم .. هو ما سمعته .. هناك بقايا شخص سابع .. بقايا ممزقة.. بقايا لا يمكن أن يكون الانفجار قد سببها ..هل تريد أكثر ؟.. هناك بقايا من كتاب محترق بالإنجليزية يتحدث عن سحر القرون الوسطى .. هناك بعض الرموز الدينية وجدناها وسط الرماد.. -
اقشعر جلدي لهول الفكرة، وعدت أسأله:
- -بقايا لم يسببها الانفجار ؟-
ابتسم في توحش وقد أدرك أنه أثار اهتمامي:
- -نعم .. بقايا من شخص تم تمزيقه قبل ذلك .. هؤلاء الفتية كانوا مجتمعين لممارسة السحر الأسود أو طرد روح شريرة .. هذا هو التفسير الوحيد .. ثم أفلت منهم الأمر وانفجرت أسطوانة الغاز .. -
ابتلعت الخبر مع ما بقى في قدح القهوة وسألته:
- -وأهل هؤلاء الفتية ؟.. لم يعرفوا شيئاً عن ذلك ؟-
- -كلهم فتية طبيعيون حديثو التخرج.. منهم المهندس والمحاسب والطبيب والمعلم.. وآخر ما يهتمون به هو هذا الهراء ..إنهم أصدقاء حميمون منذ زمن .. لكن هناك واحداً اختفى من هذه الشلة منذ أسابيع .. قبل الحادث .. هذا هو كل شيء .. -

رحت أفكر فيما قال باهتمام .. بعد قليل سألته:
- -هذا الفتى المختفي .. كيف يبدو ؟-
- -لا أعرف .. الشرطة تعرف بالتأكيد ..-
لو كان هو الفتى الذي جاء مكتبي لاتضح الأمر .. لا .. لن يتضح .. سوف يزداد تعقيداً....
شكرته ونهضت معلناً رغبتي في الانصراف فقال لي ضاغطاً على كلماته:
- -(رفعت).. أنا قدرت صداقتنا ..لكن الصحافة لا تعرف حرفاً عن هذه التفاصيل .. ما قلته لك سيظل سراً .-
هززت رأسي أن نعم .. لابد أن يقول هذا ولا ألومه كثيراً...
المزيد من علامات الاستفهام .. لماذا لا يستعيد ذلك المخبول ذاكرته بسرعة وينهي هذا الغموض ؟..
- -فقدان ذاكرة هستيري-..
خطر لي هذا المصطلح .. لم يكن الانفجار هو سبب فقد الذاكرة، بل هو فقد ذاكرته لأن ما رآه مريع ..
هذا يحدث كثيراً جداً.. الشاب يرى مصرع صديقه تحت عجلات القطار فيفقد ذاكرته ..
المرأة تكتشف خيانة زوجها فتفقد ذاكرتها .. إن هذا هو خط الدفاع الذي يلجأ له المخ كي لا يجن ...
ماذا رآه ذلك الفتى حتى جعله ينسى تماماً من هو ؟
ربما استطعت أن أساعده في ذلك ....

يقترب القادم أكثر .. أكثر ..
لكنه ما زال مغموراً في الظلال ..
بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول:
- -أنت لي .. لا تنس هذا .. أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر..-
ثم يتراجع الظل للوراء وهو يردد :
- -لا أحد .. لا أحد ..-
بعد دقيقة توارى تماماً..
وجلس الفتى في الفراش الرث ينظر إلى فرجة الباب حيث اختفى الظل ..
(رفعت) الأحمق قال إن هذه هلاوس سمعية وبصرية .. ليته كان هنا ليخبر ذلك القادم برأيه ..
لكن هناك حقيقة مؤكدة: هو لن يتحمل أكثر من هذا .. المشكلة انه لا فرار من ذلك .. لقد وجده ذلك الزائر في المستشفى، ووجده هنا .. فأين الفرار ؟..

في الصباح جاءت (مها) وانصرفت ..
(مها) هو اسم الفتاة المليحة التي يعرف الآن إنها زوجته .. بالطبع لم يكن على استعداد للمس إصبع من أصابعها، لأنه ـ ببساطة ـ لا يعرفها على الإطلاق .. وقد بدت اليوم مندهشة .. لابد أنه في حالته الطبيعية كان أكثر تحرراً، حتى وإن كانت زيجتهما سرية ..
أما هذا التعامل الرسمي الذي يصلح لابنة الجيران، فأمر لا تفهمه ..
على كل حال تركت له الإفطار وانصرفت .. أمس تركت له عشاء .. من الجلي أنها تهرب من الوجبات الثلاث ما أمكن، لا الوجبات كلها ..
أية حياة هذه ؟.. متزوج لكنه لا يجسر على لمس زوجته، ويأكل ما تسرقه من مطبخ أمها كأنه متسول .. وكيف تقبل الفتاة بوضع كهذا ؟
لا شك في أنها تهيم به حباً.. لكن أية خطط كان يرسمها قبل هذا ؟..ما هي تصوراته للمستقبل ؟.. ما المشكلة في أن يعلن أنه متزوج من اثنتين .. ؟.. في هذا الوقت لم تكن تعديلات قانون الأحوال الشخصية قد خرجت للوجود، وهكذا كان بوسعه أن يتزوجها دون أن تعرف زوجته الأولى بأي شيء .. فلماذا كل إجراءات المحاماة المعقدة إذن ؟
الحقيقة أنه كان يؤمن في كل لحظة بأنه لغز مبهم ..
على كل حال تبلغ بلقمتين ثم نزل ..
لا أثر لذلك الرجل الخطر الذي يدعوه (كمال) لحسن الحظ .. وخطر له أنه ـ على الأرجح ـ لا يعرف بيته .. هذا منطقي وإلا لعرف أنه (بدر)..

حملته قدماه والمواصلات إلى النقطة التي تركته عندها المرأة منذ يومين ...
قالت إن هناك جريدة .. وهو راغب بحق في أن يرى من فيها ..
دار حول المنعطف .. بحث بعينيه عن مبنى عملاق يماثل مبنى (الأهرام) أو (أخبار اليوم)، لكن ظنه خاب .. لا توجد أية مبان عملاقة هنا .. الشارع مزدحم وهو يصطدم بالمارة لكنه رفع عينيه لأعلى وراح ينظر إلى الشرفات .. هناك لافتة (نيون) متسخة كتب عليها (جريدة الفلاح الفصيح) تبرز من شرفة في الطابق الثاني .. لا يوجد ما يدل على جريدة أخرى في الشارع..
محبط جداً هذا المدخل المتسخ الرطب .. هي إذن جريدة من التي تباع بالوزن لتجار الورق .. ربما تتكسب من الإعلانات أو الإتاوات .. عنوانها يوحي بالانقباض والتشاؤم ..
دخل الباب المنخفض ليجد صالة استقبال .. غرفة استقبال .. (كشك) استقبال ..رائحة الورق .. أكوام من الورق وحبر الطباعة، وكومة من الصحف التي لا تباع بالواحدة ولكن بالكيلوجرام ..
ثمة سكرتيرة شاحبة تجلس وأمامها كومة من شطائر الفول وهاتف وآلة كاتبة .. فلما رأته صاحت:
- -كنا نبحث عنك يا أستاذ (عصام) !.. أين أنت ؟-
تماسك حتى لا يسقط أرضاً .. إن الأمر يزداد تعقيداً من لحظة لأخرى .. الحقيقة أنه يمقت نفسه بجنون .. لماذا من بين البشر جميعاً اختار لنفسه هذه الشخصية الغامضة المعقدة ؟

قال لها كلاماً لا معنى له، فقالت وكأنها تفهم:
- -أعرف .. هو كذلك متضايق منك ..-
وأشارت بطرف خفي إلى غرفة داخلية، وأضافت:
- -قال إن كلمة واحدة لن تنشر لك طالما هو حي..-
يبدو أنه مثير للمتاعب كذلك ..
ثم أضافت الفتاة وهي تبتسم في حياء:
- -أمس أخبرت أمي بقصتنا .. بما قلته لي .. وسوف تأتي قريباً لتلقاك !-
يا للكارثة !..
واضح أنه ألعن زئر نساء على وجه الأرض .. يتمنى لو قابل فتاة واحدة لم يغازلها أو يطلب الزواج منها أو يبثها حبه ..
قالت له برقة:
- -هل تريد أن تلقاه ؟-
من هو ؟.. طبعاً رئيس التحرير أو شيء من هذا القبيل ..
المشكلة هنا أن كل من يعرف وجهاً آخر من وجوهه يعرف طرفاً عن الوجه الآخر .. الفتاة التي هي زوجته الثانية تعرف عن مكتب المحامي، لكنها تناديه (بدر) بينما المحامي يناديه (محمود) .. زوجته القديمة (عزة) تعرف أنه يعمل في هذه الجريدة .. لكنه لا يستخدم الاسم ذاته .. بل تعرف مكتب المحامي .. الرجل المريب إياه قال إن اسمه (كمال) بينما من السهل أن يعرف أنه (بدر)..

قال لها محاولاً ألا ينزلق في فخ ما:
- -لا أرغب في لقائه اليوم ..أ..... قولي لي ..-
أصعب شيء في العالم أن تعرف من أنت دون أن يظن الناس بعقلك الظنون .. لهذا لابد من انتقاء كلماتك بعناية .. وخبث ..
- - متى كانت آخر مرة جئت فيها هنا ؟.. لقد نسيت ..-
بدت عليها الحسرة وقالت:
- -كان هذا يوم أخبرتني بحبك .. إنه الأربعاء منذ ستة أيام .. كيف تنساه ؟-

-لابد أنك قمت بإحدى المغامرات التي يقوم بها الصحفيون .. انتحلت اسماً مزيفاً هو (بدر) وأقمت في حي شعبي، وتورطت مع أشخاص مريبين-

لم يرد وواصل الأسئلة:
- -وذلك التحقيق الصحفي الذي أجريه .. هل أخذت نسخة منه ؟-
بدا عليها الغباء وقالت:
- -أنت تعرف أنك لم تجر تحقيقاً من أربعة أشهر ... هذا هو سبب الشجار بينكما.. لم يعد يسند لك عملاً جدياً.. أنا لا أعرف عم تتكلم..-
هذه نقطة واضحة إذن .. من الصعب أن يبدأ هذا التحقيق العجيب دون علم رئيس التحرير .. وعلى الأرجح دون علمها هي ...

هكذا قررت أن ازور هذا البيت المنكوب .. حصلت على العنوان من د.(عبد الغفار) الذي حصل عليه من رجال المباحث، وقد أوصاني عدة مرات أن أتعامل بكياسة ولا أفشي ما يعتبر حتى اللحظة سراً من أسرار العمل .. قال لي في غل:
- -سوف تقودني إلى خراب بيتي !.. تباً لك !-
قلت له إنني لن أتكلم .. فقط سألعب دور زائر جاء يطمئن على أخبار ابنهم لأنه صديق ابنه ...كان يعرف أنني قد أكون أحمق أخرق سيئ الحظ متعنتاً غبياً سخيفاً عصبياً.. لكني ـ بعد هذا كله ـ شخص يمكن الثقة به !
هكذا ظللت صامتاً أتحمل أعنف أنواع التعذيب التي يمارسها على هذا الأب المسكين .. كلما ردد كلمات الأمل في عودة ابنه ...
كان الفتى محاسباً لم يعمل بعد ... زهرة يانعة في مقتبل العمر امتلأ بالأحلام .. يقيم مع أسرته طبعاً لأنه لم يمتلك دخله الخاص بعد ..
اندمج الأب في الكلام عن ابنه .. ثم سألني بغتة:
- -هل علاقة ابنك بابني حميمة ؟-
آه !... فلنشغل جهاز الكذب المثبت في داخلي .. ليعمل بأقصى طاقة فيه ..
- -أعتقد هذا .. إن ابني خارج البلاد الآن .. و...-
نهض وعاد لي بألبوم صور فوتوغرافية .. وقال في نشوة:
- -سوف نجد صورته هنا حتماً..-

هــو القادم ليلاً حين يغفو الجميع..وحين يهلك آخر شعاع ضوء..
قال لي الأستاذ (فتحي) وهو يحك أنفه كعادته كلما تكلم:
- -نعم .. اعترف أن القلق يعتصر قلوبنا .. لكننا على الأقل نملك بصيصاً من الأمل في أن نراه مرة أخرى .. هذا أفضل بمراحل من أصدقائه الذين عرف أهلهم الحقيقة ..-
ثم تدارك وقال كأنما هو يفكر بصوت مسموع:
- -أم أن أهل هؤلاء أفضل حالاً منا ؟!... لا اعرف بالضبط ...-
كنت أصغي له بينما الشفقة تعتمل في نفسي .. سوف يتصلون به قريباً.. سوف يخبرونه ..
لو لم يطلب مني د. (عبد الغفار) أن ألتزم الصمت لصارحته وانتهى الأمر ..
أشلاء الشخص السابع في مكان الانفجار هي أشلاء ابنه (ياسر).. فحص البصمات يؤكد هذا .. إن بصماته لدى الشرطة منذ اختفائه .. يبدو أنهم حصلوا على كوب أو أداة كان يستعملها ورفعوا البصمات من عليها، وهم الآن على يقين تام بأن الشخص السابع هو (ياسر) بالذات .. أما الجزء المهم في الموضوع فهو أنه لم يمت لحظة الانفجار .. لقد مات قبلها بكثير ..
شعرت بحاستي أن مفتاح اللغز يكمن في هذا الشخص السابع .. بالنسبة للستة الآخرين تبدو القصة متجانسة مترابطة .. الموت أو الإصابة بانفجار .. هذا من حقهم .. لكن ماذا يفعل السابع الذي لم يمت بانفجار وسط هؤلاء ؟
طبعاً لا داعي لذكر أني رأيت صور (ياسر) وتأكدت يقيناً من أنه ليس ذلك الشاب

أدركت أن هذا الألبوم تسليته الوحيدة .. وقررت أن أشاهده بحثاً عن صورة ابني الذي هو صديق (ياسر) الحميم .. سوف أبحث عن مناسبة اسأل فيها عن آخر مرة شوهد فيها ابنه ومع من خرج آخر مرة ...
راح يقلب الصور .. أطفال في مدرسة .. مراهقون في مدرسة .. صف من الشباب يقف ضاحكاً بينما الصف الخلفي يرفع أصابعه ليرسم آذاناً للصف الأمامي .. الهراء المعتاد ..
أخرج الأب صورة تمثل مجموعة شباب يقفون على شاطئ ماء وقال:
- -هذه هي الشلة .. قلما افترق هؤلاء منذ الصف الثالث الإعدادي .. هل تعرفهم ؟.. هذا هو (ياسر) .. ثم (نادر) و(معتز) و(محمد) .. هذا البدين هو (محسن).. ثم هذا هو (جلال)... فليرحمهم الله جميعاً..-
كانت عيناي تبحثان في لهفة بين الوجوه عن وجه ذلك الفتى الذي زارني في مكتبي ..
لا . ليس بينهم .. ليس من الشلة على الإطلاق ..
قلبت الصفحة فوقعت عيناي على ضالتي ..
هذا هو (ياسر) يقف مع ذلك الشاب بعينه .. وهناك من يخطف شيئاً من واحد آخر .. مزاح الشباب إياه الذي لا يخلو من غلظة ..
سألت الأب مشيراً للصورة:
- -من هذا ؟-

ثبت عويناته جيداً ثم قال بثقة:
- -هذا (شاكر)... ليس من الشلة لكنه فتى لا بأس به ..-
- -هل زاركم هنا ؟-
- -أحياناً.. وكان (ياسر) يخرج معه .. كل هذه الأسئلة وجهها لي رجال الشرطة من قبل، لكن لا أعتقد أن للفتى علاقة بأي شيء ..-
قلت له وأنا انهض:
- -هلا أعرتني هذه الصورة ؟... ثق بأنني سأعيدها لك في أقرب فرصة ..-
لم يبد متحمساً للفكرة، لكنه لم ير فيها ضرراً خاصة أن ملامح ابنه ليست واضحة فيها .. هكذا وافق .. وهكذا غادرت داره غارقاً في التفكير ....

خمس جثث لأصدقاء من شلة واحدة .. جثة سادسة ماتت قبل الانفجار ..
شخص سابع لا يمت للشلة بصلة ..ولم يمت في الانفجار ...
ستة أشخاص اجتمعوا في ذلك المخزن لطقوس غامضة، ثم حدث الانفجار .. هل كانوا يعرفون بوجود بقايا (ياسر) هناك ؟...
كيف مات (ياسر) ؟...
- -احترس أيها الحمار !!-
وأنت الفرامل بينما سائق العربة يحاول منع المصيبة التالية، فوثبت إلى الإفريز .. بينما هو يطلق علي فيضاً من السباب استأهلته بجدارة .. مشكلتي أنني لا أقدر على الجمع بين التفكير العميق والبقاء حياً.. هذان نشاطان بشريان لا يجتمعان ....
فما أن أيقنت أنني سليم حتى عدت إلى التفكير ....
هل هو (شاكر) أم (بدر) أم (محمود) أم (كمال) ؟
ماذا كان يفعله في المخزن مع هؤلاء ؟..
من هو القادم ليلاً الذي ينذره بأنه لا فرار .. ؟

- -هل أبدأ من هنا يا دكتور ؟-
- -بل من هنا .-
وأشرت إلى موضع في الأرض قدرت أنه لم يمس منذ الانفجار ..كان موضعه هو افضل لكني قررت أن ألعب دور من يعرف ما يفعله ..
بدأ الرجل يحفر والعرق يغمره، بهذه السرعة قبل أن يبدأ .. أحب هذا الحماس ..
أشفقت عليه من كل هذا الجهد العضلي، ثم قلت لنفسي إن هناك أشخاصاً يناسب تكوينهم هذه الأعمال العنيفة، بينما أنا يناسبني أكثر ـ لحظة للهاث ـ الجهد الفكري .. هذا الجهد يتعب قلبي ويجعلني أغرق في العرق ..
كان المخزن مخيفاً في ضوء الغروب .. المنطقة صارت مهجورة تقريباً، ولم يبق فيه أصلاً ما يصلح لأن تدعوه (مخزن) بقلب مستريح .. فقط هناك أربعة أطلال تذكرك بالأطلال التي كان شعراء العرب يشببون في معلقاتهم عندما يمرون بها .. وكأنها (مراجيع وشم في نواشر معصم)..
كان هنا انفجار مروع أزال السقف وأكثر الجدران .. تحول المخزن إلى أطلال ينعق فيها البوم وتتخذها الكلاب الضالة مأوى وحماماً...
كنت أعرف أن بعض الإجابة على أسئلتي هنا، لذا بحثت عن أحد العمال الذين يبيعون جهدهم العضلي ولا يسألون كثيراً... طبعاً أصابته الدهشة لأنه كان يتوقع أن أطلب منه حمل (مترين) من الرمال إلى الطابق الرابع أو أي شيء من هذا القبيل .. لكن الحفر في مخزن مهدم .....؟
- -هل تبحث ـ بلا قافية ـ عن مال مدفون هنا ؟-
- -تقريباً..-
وكنت أعرف أن هذا المكان لم يعد في نطاق عمل الشرطة ..لم يعد دليلاً.. ليس هناك حارس أو خفير .. لقد عاد المخزن المهدم إلى ما كان عليه: مجرد مخزن مهدم ...

والآن ـ عند الغروب تحاشياً للأسئلة ـ أقف هنا أراقب عملية الحفر .. سوف أعمل بطريقة عشوائية .. أنتقي أكثر من موضع .. ربما وجدت شيئاً أو لم أجد ...
اسم العامل (صميدة).. من (موشى) بالصعيد .. لديه زوجتان وسبعة أطفال لم يرهم منذ عام ... الحقيقة أنه اعتبر أن عليه أن يقدم لي تقريراً وافياً عن أحواله العائلية وهو يعمل .. لسبب ما اعتبرني فضولياً جداً وراح يروي هذا الفضول ...
لديه آلام في أسفل الظهر وتضخم بالبروستاتا .. وقد عولج من البلهارسيا منذ عامين لكن ...
كانت الأرض ترابية .. وعليها آثار عشرات الأقدام ..
مساحة المخزن ذاتها لا تتجاوز ستة أمتار في خمسة أمتار .. لا اعتقد أن معامل التحليل تحتاج إلى مساحة أكبر .. مكان خال تماماً إلا من بقايا براميل خشبية لا أعرف إن كانت كذلك من البداية أم أن الانفجار هو السبب ..
ما الذي يدفع إنساناً بكامل قواه العقلية إلى إحضار أسطوانة غاز إلى هذا المكان ؟
هناك الآن حفرة .. حفرتان .. طلبت منه إلا يبالغ في عمق الحفرة .. أريدها حفراً استكشافية كالتي يحدثها أي نمس في حديقة ..
لكن الظلام يزحف والرجل يعرق وأنا أشعر بالملل ..
من الجلي أنه لا يوجد شيء وأنا أحمق ...
- -يبدو أن الأمر قد انتهى يا ريس صـــ...-
هنا سمعته يصرخ كأنه امرأة هستيرية مصابة بسرطان الحنجرة، داست على ثعبان ....

الآن أرى العظام .. عظام إنسان بلا شك ...
تراجع هو للوراء وراح يبسمل ويحوقل .. إنه صعيدي ثابت الفؤاد لكنه لم يتوقع هذه المفاجأة .. الظلام والخرائب.. كل هذا أوقظ فيه تراثاً هائلاً من قصص الغولة والجان مشقوقي الأعين بالطول ..فلن يندهش لو وجد أنني تحولت إلى عملاق أزرق اللون ..
انحنيت وتفحصت العظام ..
لو كنت سعيد الحظ لوجدت أن ...
لكن هذه عظام طفل .. !.. أكره ان أقول هذا لكنها الحقيقة ...
عظام طفل .. وهذا يعني أنها لا تمت بصلة لذلك الفتى (ياسر)...
هذا المخزن ليس مخزناً قدر ما هو سلة مهملات كبيرة ...
أو خزانة مأكولات ...؟

هــو القادم ليلاً حين يغفو الجميع..
من جديد ظهر الشبح المألوف على الباب ..
كان في الآونة الأخيرة قد صار أكثر انتظاماً في مواعيده .. غالباً ما يظهر في الدقيقة الأخيرة قبل منتصف الليل ..
- -من قبضة القادم ليلاً.. لا أحد يفر..-
برغم أن هذه اللقاءات معتادة ويومية فإنه ما زال يرتجف هلعاً من تلك اللحظة .. استجمع شجاعته وصاح بالعبارة التي تمنى أن يسألها:
- -من أنت ؟.. ماذا تريد مني ؟-
أرادها غاضبة فخرجت أقرب إلى بكاء متوسل ..
- -أنا القادم ليلاً ... أريدك ألا تنسى ..-
- -أنسى ماذا ؟-
- -مادمت سألت فأنت نسيت .. سوف تتذكر أو موتاً تموت ..-
ثم توارى الشبح من جديد ..
جلس في الفراش يرتجف .. ما سر هذه الزيارات ؟.. إن حياته معقدة بما يكفي فلا تحتاج إلى المزيد ..
ولماذا لا يتذكر ؟.. لماذا لا ترتاد الخيالات ذاكرته ؟.. لم يستعد أية ذكرى منذ الحادث إلا هذه الغرفة الحقيرة التي يقيم فيها ..
قرر أن يزور العجوز (رفعت إسماعيل) غداً ليرى ما لديه ..

وقف على باب شقتي وابتسم ..
أنا من أعطاه عنوان البيت وعلي أن أتحمل ..
أمقت الأشخاص الذين يعتبرون ظهورهم هدية الأقدار لروح معذبة، لذا قلت له في نفاد صبر:
- -هلا دخلت من فضلك ؟.. إلا لو كنت تقدم إعلاناً عن معجون أسنان ..-
لم يفهم الدعابة لأنه لا يفهم طريقتي .. لكنه دخل على كل حال ..
قلت له :
- -هل من خيوط أخرى ؟-
حكى لي كل ما استجد في قصته في الفترة الأخيرة .. وقال إنه لا يملك أية أرضية ليعتقد أنني محق بصدد نظرية (الصحفي ـ المغامر ـ الذي ـ غير ـ اسمه)..
أخرجت صورة ووضعتها تحت أنفه وقلت بلهجة المنتصر:
- -هل تعرف هذا الفتى ؟-
نظر للصورة طويلاً.. لن أعرف إذا كان لا يتذكر أم هو يتظاهر بذلك .. فقط قال في هدوء:
- -لا أعرفه .. لكن هذه صورتي بالتأكيد ..-
قلت :
- -المفترض أنك صديقه وتدعى (شاكر).. الفتى يدعى (ياسر).. وهو من شلة المخزن المنفجر-
- -هذا طبيعي .. أعتقد أنني كنت من الشلة أيضاً..-
- -لا لم تكن من الشلة .. لكنك صديق (ياسر) .. و(ياسر) قد توفي في ظروف شنيعة قبل الانفجار بوقت طويل ..-

نظر لي في حيرة وقال:
- -لا أفهم .. ماذا ترمي إليه ؟-
قلت في ضيق:
- -ليتني أعرف ..كأن عطسة تريد أن تخرج مني فلا تكتمل .. بيت الشعر جاهز لا ينقصه إلا حرف الروي ..كنت آمل أن تقدم لي أنت هذه المساعدة الأخيرة .. ساعدني على إخراج العطسة !-
هنا دق جرس الهاتف .. فرفعت السماعة ورحت أصغي بعض الوقت ..
في النهاية قلت للمتكلم:
- -لا .. لا داعي .. لقد جربنا هذا كثيراً.. أعتقد أن النتائج صحيحة ..-
ثم وضعت السماعة ..
- -أستميحك عذراً لحظة .-
وتوجهت إلى غرفة نومي، فبحثت عن زجاجة (النيتروجلسرين) ووضعت قرصاً تحت لساني .. وانتظرت قليلاً حتى راح النبض يتردد في جمجمتي والصداع ....
ثم اتجهت إلى المطبخ، فأعددت له مشروباً، ثم دسست السكين في جيب الروب الذي أرتديه وعدت له ..
وضعت الكوب أمامه فتأمل المشروب في فضول وقال:
- -ما هذا ؟-
- -عصير طماطم مُحلى .. جربه فلن تجده رديئاً..-

رفع الكوب إلى فمه وجرع جرعة كبيرة، ثم بدا عليه الرضا وقال:
-
-لا أعرف ما هو .. لكنه منعش لذيذ ..-
قلت وأنا أجلس على مسافة بعيدة منه:
- -هل تعرف الهاتف الذي جاءني الآن ؟.. إنها المستشفى .. كنت قد طلبت أرقام آخر تحليل أجريته هناك .. إن صورة دمك عجيبة فعلاً.. هل تعرف ما يحتويه دمك من مادة الهيموجلوبين ؟.. -
- -لست طبيباً يا سيدي فلا تتعبني بالأرقام ..-
- -لا يجب أن تكون طبيباً كي تعرف أن خمسة أقل من تسعة .. وأن الصفر أقل من الاثنين .. فقر الدم يبدأ حين يقل الهيموجلوبين عن أحد عشر جراماً تقريباً.. نفكر في نقل الدم حين يتدنى الرقم عن تسعة .. ثلاثة لا يتفق مع الحياة أصلاً.. لكن ماذا تقول عن رقم (صفر) ؟-
اتسعت عيناه ونظر لي في حذر، فقلت:
- -نعم .. الهيموجلوبين عندك صفر .. لقد قاموا بتكرار التحليل عدة مرات وفي كل مرة يظفرون بالنتيجة ذاتها .. هل تعرف معنى هذا ؟-
نظر لي ولم يعلق، وكان قد فرغ من الشرب فوضع الكوب على المنضدة ..فأضفت:
-
-هذا الذي تشربه وتستسيغه ليس سوى كبد بقري نيئ أعددته لغدائي، لكني قمت الآن بخفقه بالخلاط، وأضفت بعض السكر له .. هذا مشروب مقزز لا يتحمله كائن طبيعي .. لكنك شربته وأحببته ولم تلحظ شيئاً غريباً فيه .. بينما لم تعد تطيق أي نوع من الأطعمة ولا المشروبات العادية .. هل تعرف معنى هذا ؟-

اتسعت عيناه أكثر ووضع يده على رأسه فقلت:
-
-المخزن الذي انفجر لم يكن مخزناً.. كان غرفة طعام .. ثمة غول كان يقتاد ضحاياه إلى هناك .. أعتقد أن (ياسر) كان آخر ضحاياك ... وأعتقد كذلك أن الأصدقاء خمنوا حقيقتك وقرروا أن ينهوا اللعبة معك .. استدرجوك إلى هناك وحاولوا إحراقك .. لكنهم كانوا حمقى وحدث الانفجار الذي أودى بهم جميعاً.. وبقيت أنت حياً لكنك نسيت كينونتك ..إنك تستمد وجودك من الآخرين، وربما كانت قياسات المستشفى في البداية تدل على آخر وجبة التهمتها .. كان الهيموجلوبين منخفضاً جداً لكنه موجود-
هل عيناي تخدعانني أم أن ملامحه تتغير ؟
واصلت الكلام:
- -لا يعلم إلا الله من أنت حقاً.. أنت تمارس أكثر من حياة مع أكثر من شخص .. والغرض أن تقتادهم جميعاً بكامل إرادتهم الحرة إلى المخزن لتنهي ما بدأته .. هذا هو كل ما عندي يا بني .. وآخر ما يجب أن أقوله هو أنني دسست لك كمية لا بأس بها من أقراص المنوم في هذا المشروب ..لا أعرف إن كان سيؤثر فيك لكني اعتقد أنك احتفظت ببعض الصفات الفسيولوجية البشرية برغم كل شيء .. أما إن لم يؤثر .. فعندي حل آخر ..-
وأخرجت السكين من جيب الروب ..
- -لن أؤذيك .. لكني سأنقل خواطري للشرطة .. ولسوف يأخذونك نائماً إلى حيث يعرفون حقاً ما علاقتك بهؤلاء الفتية و(ياسر).. -

هنا راح رأسه يتأرجح ..
حمداً لله .. اعتقد أنه سينام فعلاً..
راح يردد من بين أسنانه التي خيل لي أنها مدببة:
-
-نعم .. نعم .. الآن أتذكر .. البلهاء تهامسوا .. يبدو أن (ياسر) هذا كان قد ترك رسالة لأحدهم يخبره بموعدنا في المخزن .. قرروا أنني قتلته .. يبدو أن أحدهم فتش المخزن وخمن ما أفعله .. هكذا طلبوا لقائي هناك .. كانوا مزودين بكتاب سحر قديم ومعهم تلك الأسطوانة .. آه .. المخابيل .. عود ثقاب أمام صمام الأسطوانة واللهب مسلط علي .. أنا لا أموت بهذه الطريقة .. انفجار .. كلهم ماتوا .. الآن أتذكر ..-
ثم راح يصرخ وهو ينظر إلى السقف:
- -القادم ليلاً هو أبي .. نعم .. نعم .. أنا في قبضته .. لا فرار لي .. سأظل كما كنت .. يأتيني كل مساء ليذكرني بمهمتي .. لا فرار .. لا فرار ..-
كنت أنا في حالة سيئة بالطبع .. لماذا لا ينام هذا الأحمق ؟؟
قال وقد صار وجهه غريباً بالفعل .. وجهاً لا يمت له بصلة:
- -أنت أعدت لي ذكرياتي .. الآن أعرف من أنا .. أنا غول وسأظل كذلك !... -
وقبل أن افهم ما يحدث كان قد وثب من مقعده وبضربة واحدة وجدت نفسي في نهاية الصالة جوار مدخل المطبخ .. هنا فقط عرفت أن الأقراص المنومة لا تؤثر في المسوخ ..
كان الآن يصدر زئيراً كالذئبة .. وبيد مرتعشة فتح الرتاج وغادر الشقة ..
لابد أنني استغرقت ربع ساعة راقداً على الأرض تؤلمني عظامي ... لا اصدق أنه ذهب ....
لكنه فعل ذلك ..

هــو القادم ليلاً..

لماذا تركني ؟
لا أعتقد أن هناك تفسيرات كثيرة .. تركني لأنه بحاجة إلى أن يخلو بنفسه ....
موقف عسير بعض الشيء .. أن تفقد ذاكرتك وتقضي وقتاً في محاولة استعادتها فقط لتكتشف أنك غول !...تفيق وسط مجموعة من الجثث لتعرف أنك مسئول ـ بشكل ما ـ عن قتلهم ..
والآن ترى ما هي خطوته التالية ؟
هل يعود لي ؟
ما هو عنوانه ؟.. المشكلة أنني لا أعرف من هو حقاً .. هل هو (بدر) ساكن السطح المتزوج سراً من جارته الحسناء ؟.. أم هو (كمال) المتورط في صفقة مشبوهة ما مع رجل مشبوه ؟.. أم هو (محمود) الذي يريد أن يترك زوجته ؟.. أم هو الصحفي (عصام) الذي لا ينعم بعلاقة طيبة مع رئيس التحرير ؟.. أم هو (شاكر) الذي كان صديقاً لـ (ياسر) ؟...
هناك خيط واحد يمكن أن أبدأ به ...

الشك والحذر طبيعة المحامين، لذا لم يبد الأستاذ (فهمي) على استعداد على الإطلاق لتصديق قصتي المعقدة عن صديقي (محمود) الذي أريد الاتصال به ..
قلت له ملحاً:
- -ليكن .. لا عناوين .. لكني أريد رقم هاتف ..-
فكر قليلاً وراح يتأملني ثم سألني بلا تكليف:
- -هل أنت تعمل مع (جابر) ؟..-
- -(جابر) من ؟-
- -(جابر عبد الستار) المحامي .. -
تذكرت الاسم .. هكذا قلت في ثقة وهدوء:
- -لا أعرفه .. لكني أريد أن أعرف نوعية الخطر أو الأذى الذي يمكن أن يحدث لو أطلعتني على رقم هاتف (محمود) -
- -لا أعرف .. لهذا لا أعطيه لك .. كل ما لا أعرفه يجعلني أنكمش وأكون أكثر حذراً... لا تؤاخذني لكن هذه طبيعة المحامين..-
رحت أفكر في حل .. في النهاية لم أجد .. هكذا نهضت محبطاً..

هنا قال لي وهو يخط شيئاً على ورقة:
- -هاك رقم هاتف زوجته .. مدام (عزة)... لو كنت تعمل معها فأنت تعرفه .. لو كنت صادقاً فهي ستخبرك بكل شيء ..-
قلت له وأنا أفكر ملياً:
- -لقد غيرت رقم هاتفها ..-
- -وهذا هو الهاتف الجديد ..-
ثم أرخى وجهه ونظر لي بما معناه (هل –من –شيء –آخر –تطلبه –فلا –أمنحك –إياه -؟)..
قلت له وأنا أدس الرقم في جيبي:
- -ربما كان هذا كافياً.. شكراً..-

كانت (عزة) - بطبيعة الحال - أكثر حذراً..
قلت لها إن لدي أشياء مهمة بصدد زوجها، وإنني راغب فعلاً في لقائها في أي مكان تحدده ..
قالت في حدة:
- -لكني لن أقابلك في مكان عام ولا في بيتي ..-
جميل .. جميل .. قلت لها في برود:
- -ليكن .. ربما أستطيع العثور على كهف في أعماق المحيط أو وسط جبال القمر .. ربما في عالم مواز لو أردت ..-
- -هل تمزح ؟-
- -طبعاً أمزح .. الاقتراحات العجيبة لا تستحق إلا المزاح ..-
فكرت قليلاً.. الحقيقة أنها فعلاً كانت راغبة في معرفة ما أحمله، لذا حددت لي مكاناً ألقاها فيه، وسوف تلتقطني بسيارتها وتتم المحادثة هناك .. إجراءات معقدة جداً سوف تتخلى عنها فوراً لو رأت مظهري المتهالك .. لا اصلح للعب دور (ستيفان روستي) في الأفلام القديمة أبداً..
وكان اللقاء مختصراً. هي كما وصفها زوجها وألعن .. متحذلقة .. تداري عينيها بتلك العوينات السوداء فلا تعرف كيف تبدو روحها .. تذكرني بالطلاء الأزرق الذي كنا ندهنه على النوافذ عام ١٩٦٧ إتقاء للغارات .. كذلك هي تطلي نافذة روحها بهذا اللون الأسود فلا تعرف حقاً ما تفكر فيه ..

كنت مختصراً: زوجها يعاني مشكلة نفسية عويصة ولابد من أن أجده، ولابد من أن تخبرني لو طلب لقاءها

هي كانت مختصرة: قابلته من عام وتحابا وتزوجا .. لكنه بدأ يبتعد عنها وهو يريد الطلاق من فترة.. لكنه يريد طلاقاً بموافقتها .. تعتقد أنه يميل لواحدة أخرى ..

ثم فكرت قليلاً وأضافت:

- -هناك بيت لكنه لا يذهب إليه .. أنا متأكدة من هذا ..-

(سيذهب الآن بعد ما استعاد ذاكرته)... هكذا قلت لنفسي ..

- أمسكت بورقة صغيرة وراحت تخط لي عنواناً:

- -إنه بيت في عزبة ريفية .. هذا البيت يخص أسرته كما قال .. هذا هو العنوان .. اسم القرية ..-

- -هل قابلت أسرته ؟-

- -لا .. زيجتنا كانت غريبة في كل شيء .. ويبدو أنها ستنتهي نهاية أغرب ..-

ثم توقفت بما معناه أن بوسعي الرحيل فقد انتهى الكلام...

ترجلت من السيارة ..فانطلقت لا تلوي على شيء ..

- -لا تنسي أن تتصلي لو .....-

لكنها كانت قد ابتعدت وسط سحابة من دخان الزيت المحترق، الذي ينبئ بنهاية عمر موتور هذه السيارة قريباً بعون الله ..

لا أعرف إن كنتِ أفدتها ..

هــو..

قال لي الرائد (عزت) وهو يشعل لفافة تبغ أخرى :

- -لماذا تعتقد أنه سيظهر هنا بالذات ؟-

كنت انظر إلى العزبة التي تقترب، وقلت له:

- -مجرد حدس .. هو لن يستخدم المخزن، بينما استعاد ذاكرته فلابد أنه تذكر هذه العزبة .. -

ثم أضفت بخيبة أمل:

- -بالطبع ما لم يكن عنده مكان آخر أنسب..-

قال الرائد (سالم) الجالس في المقعد الخلفي، وهو يلهث بسبب ضيق المكان بالنسبة لجسده الضخم:

- -الحقيقة أننا لا نصدق حرفاً ما تقول يا دكتور .. لكن هذا الرجل مثير للاهتمام فعلاً.. لا توجد معلومة واحدة ثابتة عنه .. لا نعرف من أين نبدأ.. التوكيل في مكتب المحامي مزور .. الأوراق التي قدمها للجريدة مزورة .. حتى أوراق امتلاك هذه العزبة لا نعرف أين هي .. هذا رجل لا يمسك الإمساك ببدايته، وهذه هي النقطة الوحيدة التي تهمنا ..-

كان الرائد (عزت) هو الذي يقود سيارته .. شاب وسيم هو أقرب من زميله إلى تصورنا لضابط الشرطة عامة.. ومن الواضح طبعاً أن هذه الرحلة تتم بشكل غير رسمي، وعلى مسئوليتي الشخصية .. إن العلاقات الشخصية تجدي أحياناً... لكنهم لم يستطيعوا إثبات أن صاحب العزبة هو نفسه المزور .. هكذا كان قرارهم هو: فلنذهب ونلق نظرة ...

وأنا لم أكن أهتم بالتزوير .. كنت مهتماً بأشياء أخرى تعرفونها جيداً...

أخيراً نرى الحقول الممتدة .. هناك أشجار نخيل وحقل من الذرة .. ثمة مجرى ماء وبيت بسيط يقف وسط المكان كأنما هو يستشرف القادمين ..
قال (عزت):
- -لا أرى خفراء ولا أجيراً ولا خولياً ولا أي شيء .. هذا المكان مقفر ..-
- -لا تعتمد على هذا ..-
قالها زميله وهو يشير من النافذة ..
بالفعل كانت هناك سيارة تقف هناك ..على بعد خمسين متراً...
سيارة (فيات) زرقاء أعرفها جيداً، وأعتقد أن محركها يحتاج إلى (عمرة) سريعة ..
أطلقت سبة برغمي، وغمغمت:
- -الحمقاء !... كان يجب أن تخبرني !-
نظر لي الرائد (سالم) وقال:
- -هل تعرف السيارة ؟-
- -سيارة زوجته .. أعتقد أنها جاءت لتخبره بالأحمق الذي سألها عنه .. -

أوقف (عزت) السيارة، وفتح الباب .. وتأوه من ألم استرخاء عضلات ساقيه بعد كل هذه القيادة .. ثم أشار لنا كي نترجل..
- -سنذهب لنلقي التحية...-
قال زميله:
- -لاحظ أن وضعنا غير رسمي ..-
- -لن يسألنا عن أوراقنا .. فقط أريد أن أراه رأي العين ..-
وهكذا انفتح بابان وترجل رجلان ...

على الباب توقف (عزت) كأنه في فيلم سينمائي في وضع توقف الكادر Freeze frame..
وكانت يده في الهواء موشكة على الدق ..
تصلب قليلاً ثم أصاخ السمع ..
- -هل يحتفظون بكلب هنا ؟-
- -لا أعرف ..-
نظر لي ولصاحبه، ثم مد يده إلى الباب .. ثم تراجع ..
- -أرى أن نبحث عن مدخل آخر ..-
وهكذا رحنا ندور حول البناية في حذر ..
هناك باب خلفي متداع .. حالته لا تسمح بغلقه على كل حال .. ونظر لنا نظرة أدركنا معها أننا سنتسلل دون جلبة من هذا الباب ..
همس (سالم):
- -لاحظ أننا لا نحمل إذناً بالتفتيش .. -
قال في تصميم وهو يفتح الباب:
- -لاحظت هذا ..-

ثم احتاز المدخل وتبعته .. من الطريف أنني الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يدخل .. إن تهمة التسلل لممتلكات خاصة لا تساوي تهمة اقتحام بيت دون إذن من النيابة ..
لكن هذه الضجة مستمرة بالفعل .....
أذكر هذا الصوت .. ليس صوت كلب ..بل هو أقرب لصوت ....
دب ؟!....

- كان الآن يصدر زئيراً كالدببة .. وبيد مرتعشة فتح الرتاج وغادر الشقة ..-

البيت يتكون من طابقين ... بناء بدائي صممه مهندس مخبول على الأرجح ... لا يوجد بلاط .. كل شيء يوحي بأنه في مرحلة (التشطيب) يوماً ما .. لا يوجد أثاث من أي نوع ...
ثمة ممر على اليمين .. مشينا وراء (عزت) ونحن لا نكف عن التلفت ...
دخل الممر فبلغ نهايته التي تطل على ما يبدو على ساحة .. تلك الساحات المخصصة لتربية الماشية .. حظيرة مكشوفة أو شيء من هذا القبيل ..
هنا توقف في مكانه فاصطدمت به من الخلف ...
وسمعته يغمغم:
- -يا أرحم الراحمين !!-

كان المشهد عسيراً على التصديق ...
سأحاول أن أكون مختصراً .. أنت تملك خيالاً ويمكنك تصوره ..
لقد بدا لنا ذلك الفتى بالفعل كأنه دب حقيقي .. دب آدمي .. وكانت فريسته هناك .. بعضها على الأرض وبعضها معلقاً على خطاطيف .. المخيف في الأمر أنها لم تكن الفريسة الوحيدة ...
يزحف على أربع ويطلق ذلك الزئير المخيف ....
لقد ارتكبت (عزة) خطأ حياتها حين ذهبت لتلقاه وحدها بعد ما استعاد ذاكرته ..
لقد تذكر من هو الآن تماماً.. وعاد يمارس عمله الذي كان يمارسه منذ .. يعلم الله منذ متى ..
وهتف (عزت) وهو يخرج مسدسه:
- -أطلق الرصاص يا (سالم) !.. اضرب (في المليان) !!-
ولم يكن (سالم) بحاجة إلى دعوة لأنه راح يطلق الرصاص في هستيريا، وقد افقده المشهد كل تعقل ..
- -يا ارحم الراحمين !!.. يا أرحم الراحمين !-
لكنني توقعت ما سيحدث ..
الدب الآدمي يستدير نحونا ويزأر من فمه الملوث بالدماء ....
لن يقتله الرصاص يا سادة .. الوحش الذي ينجو من انفجار مروع .. الوحش الذي لم يتجاوز صبغ الهيموجلوبين في دمه صفراً... لن يقتله الرصاص ..

لهذا أعد الشباب كتب السحر والرموز الدينية وأسطوانة الغاز .. لقد كانوا يعرفون ما ينتظرهم ..
تركت المشهد الدامي وجريت نحو السيارة ...
صوت الطلقات يدوي .. لابد أن هذا الشيء قد تلقى عشر طلقات على الأقل .. وما زال يزمجر ...
لابد أنني فقدت وعيي لثوان ثم استعدته لأجد أنني ممدد على مقدمة السيارة .. عرفت أنها ثوان لأن الطلقات استمرت..ثم برز لي الرائد (سالم) وهو يتصبب عرقاً...
فتح باب السيارة ومن (التابلوه) تناول مجموعة من الطلقات وراح يحشو مسدسه ويده ترتجف ..
صحت فيه:
- -لن يجدي هذا .. هل لديكما بنزين ؟-
فتح الحقيبة الخلفي وأخرج (جركن) مليئاً بالسائل الحارق ...
هكذا عدنا إلى البناية حيث كان الرائد (عزت) يطلق الرصاص على الشيء .. هذه الطلقات كانت تعوق تقدمه لكنها لا تحدث أي أثر فيه ..
صحت وأنا أفتح (الجركن):
- -توقف .. سنحرقه الآن !-
وبعثرت السائل الخطر على الوحش ...
هنا حدث شيء غريب .....

لقد وقف على قدميه الخلفيتين ونظر نحوي .. بعينين من نار نظر لي ... ومن فمه الدامي خرجت الكلمات التالية:
- -لن تجدي النيران .. صوب على الرأس !-
لم ينتظر (عزت) أكثر .. بل أحكم التصويب نحو رأس الشيء وانطلقت الرصاصة ..
وفي اللحظة التالية تهاوى الشيء أرضاً.....
أما (سالم) فقد أشعل عود ثقاب وألقاه على كتلة البنزين ...وسمعنا الـ (فهام !) المميزة، وشعرنا بأن وجوهنا تحترق فتراجعنا ..
قلت له وأنا ارتجف:
- -لقد أراد أن يموت .. هذا الدور لم يرق له ..-
- -ماذا تقول ؟-
- -لا شيء .. -
وابتعدنا عن المنظر الفظيع ..
هنا سمعنا صوتاً يختلف .. صوت عويل .. صوتاً يذكرك بعويل الذئاب في الصحاري المقفرة ..
هتف الرائد (عزت) وهو يلهث من فرط انفعال:
- -ما هذا ؟-

زحفت بحذر إلى حيث كانت تلك الحظيرة والتي كانت مسرحاً لهذه الأحداث الشنيعة ..
كانت النيران تنتشر الآن ...
ووسط ألسنة اللهب خيل إلي أنني أرى شبحاً.. شبحاً بلا رأس .. فارع القامة .. ينحني وسط النيران على الجسد الممدد ومن فم لا أعرف أين هو يطلق ذلك العويل ..
لقد كان يحتضن ابنه .. ابنه الذي فضل الموت على حياة أدرك أنها كانت حياته ..
لقد جاء القادم ليلاً.. لكنه جاء في ضوء النهار ..
كان الصوت القادم من لا مكان يقول:
- -الدم .. الدم !... الانتقام !-
هرعت إلى الضابطين، وابتلعت ريقي وقلت:
- -لا أرى وقتاً خيراً من هذا للفرار .. !-
لم يسألا أكثر وسرعان ما كنا في السيارة التي تطوي المسافات ..لم يعد من أثر لنا إلا سحابة دخان تعتلي السماء .. وصوت عويل يبتعد أكثر فأكثر ...

اعتقد الضابطان أنها النهاية ..
لم تعد هناك مشاكل إلا تقديم تقرير يقنع الرؤساء ..
وقال لي أحدهما وهو يحاول التصويب على لفافة تبغ مرتجفة متدلية من فمه:
- -رباه !... لقد عرفت ما سأراه في كوابيسي بقية حياتي ..-
وقال الآخر:
- -لكن الكابوس انتهى .. هذا ما أعتقده ..-
لكني كنت أعرف أفضل ...
القادم ليلاً لا يجدي معه الإسراع بالسيارة .. وكما يقول الأمريكيون في قصص رعاة البقر:
أعطني يوماً انعي فيه قتلاي، بعدها آتي إليك ..
لا اعرف إن كانت الشياطين تحمل نزعة الانتقام لأبنائها، لكني متأكد من أنها تحب الانتقام ..وبالتأكيد تستطيع العثور على ضحاياها .. لا تحتاج إلى عناوين ولا أرقام هاتف ....
وبعد أيام حين قرأت خبر اختفاء المحامي (فهمي) ، رحت أفكر .. هل هو الوحيد ؟.. ربما اختفت (مها) وربما اختفت تلك الفتاة سكرتيرة الجريدة .. ترى ما اسم ذلك الرجل الذي كان يرتب لصفقة غامضة مع (كمال)؟
ربما وجد القادم ليلاً من يمارس المهنة من بعد ابنه ..
ربما يفعل هذا بنفسه ..
ربما يأتي ذات ليلة لأحده واقفاً على باب حجرتي ...

ـ- أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر..-

انتهت القصة إذن ..
وكان لي موعد مع مصاصة دماء مخيفة بالفعل .. شخصية مهمة جداً في الأساطير العبرانية .. هل خمنتم أنها (ليليث) ؟...
لكن هذه قصة أخرى...
د. رفعت إسماعيل القاهرة